
حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com
العدد: ٣١ / السنة السابعة / (يوليو - أغسطس) ٢٠١٢
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول
الدنيا والإنسان
في طريق عصية على السير تمضي..
تنوء بك الأثقال..
تلهث وراء طول أمل قاتل..
ويحك من ساذج مهوس بالأحلام..
هائمٍ بتسويل الشيطان...
* * *
المجتمع المثالي
سلطة الكلمة وقوتها
السراج النبوي
ينير درب البشرية الحائرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية



العدد: ٣١
السنة السابعة
(يوليو - أغسطس) ٢٠١٢

الإنسان المثالي

من خلال رؤية كونية توحيدية تنشُد الإنسان المثاليَّ، بطلَ البصيرة وفارسَ الإدراك الـذي تصدق عليه حقيقـة أنه خُلق في "أحسـن تقويم". من خلال هـذه الرؤية وذلكم المنظـور، تعالـج مجلة حراء في عددها الجديد، "الإنسـانَ" من شـتى جوانبه وفي أبرز أبعـاده؛ المادية، والروحية، والاجتماعية، والبيانيـة، والعمرانية، والإيمانية، والحضارية وغيرها... ولذا جاء المقال الرئيس مرصَّعا بمعاني "الإنسان المثاليّ" أساسًا، و"المجتمع المثالي" تباعًا؛ هذا المجتمع، وذلك الإنسـان، المؤسَّـس على حقيقة "جمال الإسـلام الذاتي وجاذبيته الأصيلة" وعلى "نفَس القرآن الذهبي الذي يبعث الحياة في النفوس".

ومـن خـلال سـؤال مثير للفضـول: "لمـاذا لا تهضـم المعـدة نفسـها؟!" شـرَّح "الشـهاوي" إحـدى بدائـع صنـع الله فـي الإنسـان، كذلك فعـل "الخراط" فـي تحليله لـ"أسـرار الجلد البشـري". وعن الإنسـان في سـلَّم الكون والكائنات، ناقش عبد الإله بـن مصبـاح قضية بالغـة الأهمية، وهي أنَّ "الإنسـان عمَـد الكون" وعمدتـه... أمَّا عن علاقـة الإنسـان بمـا يحيطه من مخلوقات مسـخَّرة لـه، فنقرأ لإبراهيم أبـي عيانة مقالاً بعنوان "الإنسـان والنبات". وللإنسـان كلام وكلمات، وبيان وبيّنات هي سـر من أسرار خلقـه وخلقتـه، عنها قـال تعالى: ﴿الرَّحْمَـنُ ۞ عَلَّمَ الْقُـرْآنَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَـانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(الرحمن:١-٤)، وفي هذا النسـق كتب "محمد جكيب" عن "سلطة الكلمة وقوّتها".

ومـا دام الوقـف، والعمـران، ومظاهـر الحضارة الأخـرى أوجهًا ناصعـةً من كرامة الإنسـان، فقـد كتب "نعمـان ترك أوغلـو" عن "الوقـف العثماني.. حضـارة واقتصاد"، والعصراني عن "الوقف في التكافل الاجتماعي"، كما أبرز "بركات" مسـار البحث عن هوية العمارة الإسلامية.

ويبـرز مقال الشـيخ علـي جمعة في تناولـه لـ"المنهاج النبوي والقضايـا الاجتماعية الكبـرى"، ولقـد أجمـل فيه أسـس هـذا المنهج في نقاط سـتة هـي: الاهتمـام بالعلم، والعمل، والتوازن، والعدل، ومراعاة الأعراف، والتدرج في التشريع.

ولقـد كان لحـراء حضور حيوي في ملتقيات عديـدة كان من بينها المؤتمر العالمي بعنوان "السـراج النبوي، ينير درب البشـرية الحائرة"، بالاشـتراك مع مجلة "يني أوميد" بمدينة "غازي عنتب" شرق تركيا؛ ولقد عرف هذا الحدث مشاركة أزيدَ من ستين دولة، فـكان بحـقٍّ منتدىً جامعًا، وحدثًا لامعًا... وكذلـك المتلقى الدولي عن "النور الخالد" في جاكرتا، بالتنسيق مع "كرسي الأستاذ فتح الله كولن" في الجامعة الإسلامية الوطنية؛ وقـد عُقد بمناسـبة ترجمة كتاب "النـور الخالد، محمد ﷺ مفخرة الإنسـانية" إلى اللغة الأندونيسية، فكان حدثًا بارزًا، ويومًا مشهودًا.

ولـم يغـب الشعر عن هذا العـدد، ويبقى الرجـاء قمينًا أن يلتحم الشـعور الصادق بالفهـم الحـاذق، ليثمرا عمـلاً صالحًا، وحضارة أصيلة نافعـة... ويومها فقط يمكننا أن نودّع "إنسـان الجسـد" القصيـر النظر، ونصافح "إنسـان الغاية" البعيد الغـوَر، المطمئنّ القلب على الدوام... الذي نذر نفسه للإنسانية يخدمها بمعرفته وعرفانه... هذا الإنسان الذي ينهض بشجاعة خارقة، وعزيمة صادقة، لإزالة الظلم من كل أنحاء الأرض.



المحتويات





المقال الرئيس

فتح الله كولن

المجتمع المثالي

إن المجتمع المثالي هو الذي يتكون من أفراد مثاليّين. أمّا تلك الأكوام الهائمة المتخبطة التي تتشكّل أجزاؤها وجُزيئاتُها من المساوئ والآثام، فهي حشود فارغة عقيمة مُوصَدة أبوابُها أمام كافة ألوان الخير والفضيلة والجمال.

الإنسان المثالي، أو الإنسان الكامل -كما عبر عنه القدماء- هو المتحلّي بصفات ملائكية.. هو بطل البصيرة وفارس الإدراك.. هو المنتبه إلى الحقيقة الكبرى التي عبرت عنها الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين:٤) وآياتٌ أخرى في المعنى نفسه.. هو المدرِك يقينًا أن الباري ﷻ قد خلقه في أجمل الأشكال المادية، وسوّاه في أروع الصور المعنوية، فكان بديع الصنع، متفرد الهيئة، تَصدُق عليه حقيقة ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ بكل ما يعنيه التعبير.. وهو كذلك العارف بكنه الآية الشريفة التي تقول: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾(الأحزاب:٧٢)، الخبيرُ بمضامينها العميقة الواسعة.. إنه يعلم أنه المرشَّح الوحيد بين جميع الكائنات -المرئية منها والمعروفة- للعروج إلى

آفـاق لا نهائيـةٍ، وهو واعٍ وعيًا تامًّا أنه مجهّـز بِطاقـات وقُـدرات مفتوحـة إلى اللامحدود، ومسـتوعبٌ سـبل استثمار "المواهـب الأولـى" التـي منحهـا إيـاه الفاطر جل وعلا.

أجل، إنه إنسان ذلكم الوعيِ وتلكم البصيرة.

ولهذا، فإنه بقدر تمكّنه من اسـتثمار مواهبـه الأولى التي وهبها له الباري ﷻ منّة منـه وفضلاً، وبقـدر كدحه لإمضاء حياتـه تحـت أنـوار الوحـي ولألاء الإلهامـات، وجهـدِه فـي توفيـة الإرادة حقهـا، وبقـدر براعتـه فـي تنميـة تلك المواهب وتفتيقها مثل حبة أنبتت سـبع سـنابل، ونجاحِه في إطلاقهـا نحـو الأبدي اللامتناهي.. بقـدر تمكّنه من ذلك كله يمكنه سلوك الصراط الهادي إلى ذروة "الإنسان الكامل".

الإنسـان المثالـي يموج عقلُه مـوجَ الدوّامة بألف سـؤال وسـؤال، ويواصـل التنقيب عـن الحقيقة بنَهَـم عجيب، ويغذّ السير قُدُمًا لكي يفكّ شفرة ألف لغز ولغز؛ فتراه متوقّد الذهن متوثّب البحث عن أجوبة للأسئلة الكونية الكبرى: "ما الحياة، وما الموت، وما حقيقة الكون، وما علاقته بالإنسان، وما معنى العبودية لله، وماذا تعني الطاعة له، وما الإثم، وما الثواب، وما حقيقة المِحَن التي تُلمّ بالإنسان، ولماذا تُلمّ به؟".. في الوقت ذاته تراه مشـتعل الفؤاد.. قد شـيّد من بوارق الحكمة التي لا تكـفّ عن الوميض في سـماء وجدانه، ومن نسـمات الإلهام التـي لا تنقطع عن تجلياتها في أرجاء روحه، صروحًا نورانية شـامخة.. ثم سـما حتـى بلغ قمة تلك الصـروح.. فأبصر كنه الأشـياء، واكتشـف ملكوتها، وأدرك ما طُوي منها وراء ستار المنظـور.. فاتجه إلى المصدر الحقيقي للروح، يغمره الحبّ وتهـزّه الهيبة نتيجـة تقلبه بين مدّ الحيرة وجَـزْر الانبهار.. ثم ذاب فـي نشـوة من السـكينة لا توصـف، ولذة مـن الطمأنينة تسمو على كل تعبير.

وإن روحًا قد وصلت تلك القمة السـامقة لَيسـتوي لديها الإحسـانُ والحرمانُ، فلا تفرح بالألطـاف المتعاقبة ولا تزهو بهـا، ولا تحـزن بانقطـاع العطايـا ولا تيـأس منهـا.. فالعطـاء والحرمـان فـي نظرهـا سـيان.. إذ بينمـا يغتـرّ بعضهـم بالعطـاء فيطغـى، أو يُحرَم منه فيتحسـر يائسًا ويشقى، تجد تلك الروح الواصلة قد عرفت كيف تَستنبت الورودَ في قلب الفـلاة، وتسـتخرج السـكّر مـن جوف القصب، وتحقق أرباحًا متنامية حتى في مواسم الكساد والخسران.

> **الإنسـان المثـالي، متواصـلُ الغوص والتقليـب في أعماق الحـوادث والأشـياء بحثًـا عن الحـق والحقيقـة.. قد فـرّغ كل وقته ووظّف كل طاقته لتحقيق سعادة الأمة، موليًا عناية خاصة بالمواقع التي يراها أشـدّ حيوية وأكثر جدوى للأجيال القادمة، موقِفًا نفسه عليها قائلا: "لِتَحيَ الأجيالُ القادمة".**

أجـل، حتـى لـو أصابـت الإنسـانَ المثاليّ أشـدُّ المِحَـن قسـوة وفتـكًا، وأحدقت به أكبرُ الدوامات رهبة وعتوًّا، فلسوف يرى نفسه سائرًا في ممرّ طويل من الامتحانات، ينتهي به إلى ألوان شـتى من التوفيق المؤكد والفـوز المبيـن، ولسـوف يحـس -فـي أسـوء خطوبـه وعند أصعـب لحظاته- بنسـمات مـن الأنس والسـكينة القادمة من وراء الحُجُـب تطـوف فـي أرجاء روحه بِرقّـة ونعومة، فيركع بين يدي الله تعالى خاضعًا منكسرًا وقد امتلأت نفسه بمشاعر الحمد والعرفان، وفاضت بأحاسيس الشكر والامتنان.

الإنسـان المثالي، يمتلك ثقة لا حدّ لها، وطمأنينة لا غاية بعدها، لأنه يؤمن إيمانًا لا يخالجه شكّ بعناية القدرة المطلقة، ويوقـن بـأن الله قادر على كل شـيء، وأن حكمه نافذ في كل شـيء. وإنّ ذلكم الإيمان الصافي الرقراق المتجذّر في أعمق أعمـاق قلبـه، وكذلك تصـوّرُه ورؤيتُه وعقيدتُه التي أكسـبت عالـم روحه أبعادًا جديـدة تتجاوز جميع مقاييس العقل.. كلُّ ذلك يرقى به إلى قمة تسـمو على كلّ إحساس، وتتفوق على كلّ شعور. فلو تَمكّن في تلك اللحظة من أن يُنصت إلى ذاته بأذُن تعي تلك الأعماق، فلسـوف يسمع همسات ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُـوا وَأَبْشِـرُوا بِالْجَنَّـةِ الَّتِي كُنْتُـمْ تُوعَدُونَ﴾(فصلت:٣٠)، أو ﴿سَـلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُـوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُـمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل:٣٢)، ولسـوف يَسبح في متعة أكرِم بها من متعة، ويغوص في نشوة ما بعدها نشوة.

هـذا، ولأنّ الإنسـان المثالي يؤمن بالـدار الآخرة من كل قلبه، فسوف يمضي سِني عمره وينظم شؤون حياته وفق تلك

الدار.. وسيبذل قصارى جهده لاجتناب كل جُرم أو مظلمة أو فساد.. ويظل في جهاد مستمر مع نفسه دون كلل أو ملل، ومن ثم فلن يسقط في براثن العبثية ومتاهة الإباحية أبدًا.. بل ستبقى عيناه متعلقتين بجمال السفوح الزاخرة بتجليات الخليل السرمدي والولي الأبدي.. ويظل عقله في نشوة غامرة وقد وعى معنى الأبدية والخلود.. ويغدو قلبه روضة من رياض الجنان، تبتسم فيها الألوان الزاهية، وترفرف فوقها الأرواح الطاهرة غادية رائحة.. إذ يدرك حق الإدراك أنه ما جاء إلى هذا العالم العجيب إلا مسافرًا سائحًا، يشاهد الجمال، ويتأمل الكمال، ويتجول في أرجائه المترامية مشدوهًا مبهورًا.

وبينما يقضي "إنسان الجسد" كل حياته خلف ملذّاته الجسمانية، أسيرًا لرغباته النفسانية دون أن يبلغ ما ينشده من طمأنينة، فإن "إنسان الغاية" سعيد النفس مطمئن الفؤاد على الدوام.. فهو بطل الروح والمعنى.. الذي نذر نفسه للإنسانية يخدمها بمعرفته وعرفانه.. والذي نهض بشجاعة خارقة وعزيمة صادقة لإزالة الظلم من كل أنحاء الأرض.. فهو -إذا اقتضى الحال- لا يد له على مَن ضربه، ولا لسان له على مَن شتمه، بل يبسط جناح عفوه حتى على من لم يَعرِف له قدرَه أو يقدّر إليه صنيعَه.. وهو -إذا جَدّ الجِدّ- الصّوّال في ميادين الرجال، الجوّال في مواقع المقارعة والنزال ببسالة منقطعة النظير.. ولو أن السيوف نالت من أطرافه قَطعًا وبترًا، والرماح دكّت جسده طعنًا وفتكًا.. ولو أن الجراح أثخنته من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وصبغت ملابسه بصبغة العَلَم الأحمر، وتكسّرت رماحه في يديه، وباتت سيوفه لا تقطع.. أجل، حتى في تلك اللحظة، فإنه سوف يهمز جواده، مقتحمًا به الصفوف، طعّانًا للصدور، حصّادًا للرؤوس ومزلزلاً قلوب الظَّلَمة بزئير كزئير الأسود المزمجرة.

إن بطل الروح هذا، يؤمن يقينًا أن كل شيء ما خلا الله زائل، لذلك لا ينحني أمام أحد، ولا يركع إزاء أي شيء، ولا يغرّه أيُّ إغراء مادي؛ بل يقيّم كل ما يملكه، ويسخّر كل ما لديه لرفع كلمة الإسلام، مشحونًا بمشاعرِ رجال الآخرة وتصورات أبناء الخلود. فهو متواصلُ الغوص والتقليب في أعماق الحوادث والأشياء بحثًا عن الحق والحقيقة.. قد فرّغ كل وقته ووظّف كل طاقته لتحقيق سعادة الأمة، موليًا عناية خاصة بالمواقع التي يراها أشدّ حيوية وأكثر جدوى للأجيال القادمة، موقِفًا نفسه عليها قائلا: "لِتَحيَ الأجيالُ القادمة".. ثم يمضي -وقد أدى واجبه- لا يلتفت إلى الوراء ولا يلوي على شيء.

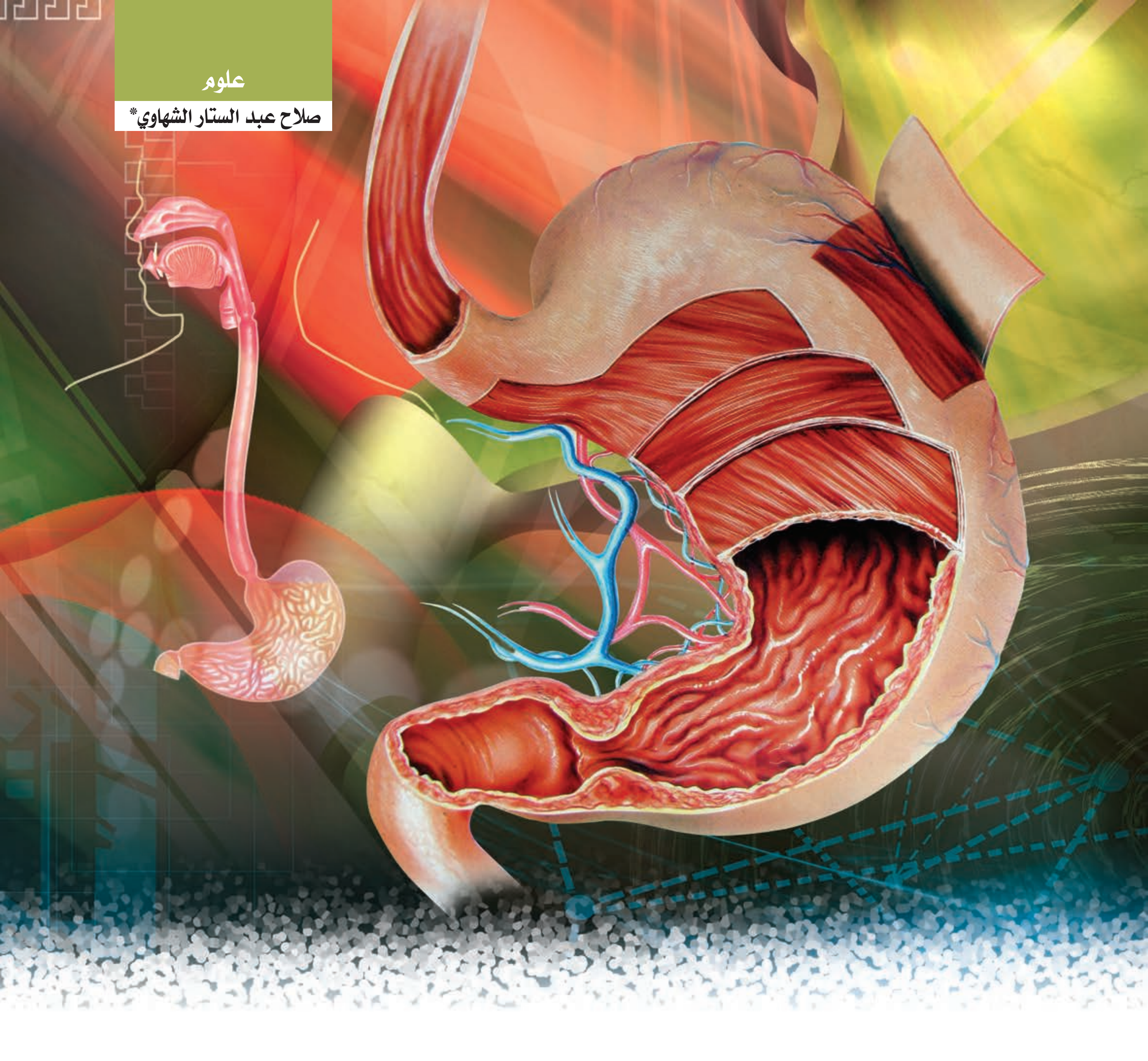
إنه يسعى ليل نهار ابتغاء مرضاة الحق تعالى منقّبًا عن الصدق الخالص. فلا الرغبة في الاستمتاع المادي تثنيه عن وجهته، ولا تألقُ الروح بالكرامات الخارقة تعكّر صفاء نظرته.. فهو يؤمن أن العبودية لله أعظم قيمة في الوجود. وفي ضوء هذا الميزان يرى أبسط العِباد أعظمَ منه مرتبة وأسمى منزلة، وبالتالي يُنزلهم منزلة التاج من الرؤوس. وإذا ما لفحه هؤلاء بنيران من الغلظة والخشونة والإنكار وعدم التقبل، فإنه يمتص لفحَ تلك النيران ويحتويها في صدره إلى أن يَخمد أوارُها. وهكذا يقدم مثلاً أعلى في المنهج والسلوك، ويعلّم هؤلاء الذين لا علم لهم بالأصول ولا الأسلوب أدبَ درء السيئة بالحسنة. أجل، في عالمه الدافئ الناعم الرقيق تَرِدُ الصواعق والبوارق على قلب نور، فتولد من جديد وتنمو في قلب النور لتضيء العيونَ والقلوبَ بوهج النور.. وفي عالمه المبتهج بالأنوار تتحول ألوان شتى من النيران النمرودية المتعاقبة إلى برد وسلام في كل حين، لتنفح النفوس الخشنة المتمردة رقّة وأنسًا.

يبدو أننا -ولا سيما البعض منا- لم نفلح في السموّ إلى هذا المرتقى من الاستواء والنضج بعد.. ولأننا كذلك، لا نحسن دفع السئية بالحسنة، فنواجهُ العنفَ بالعنف، والحقدَ بالحقد، والخشونةَ بالخشونة نفسِها؛ بل ونقع في خطأ كبير عندما نظن أهواءنا أفكارًا، ونخلط بين عواطفنا الذاتية وكفاحنا الذي نكابده باسم الإسلام، ولذلك نتكبّد خسائر فادحة في أغلب الأحيان بعد أن كنّا سائرين في مواطن الكسب ومواسم الربح.

الحقيقة أنه لولا جمال الإسلام الذاتي وجاذبيته الأصيلة، ولولا نفَسُ القرآن الذهبيّ الذي يبعث الحياةَ في النفوس.. لَتعذّر مع أدائنا الناقص الرديء، وتمثيلنا الواهي المتداعي، أن تَبلُغ هذه الأمانةُ المقدسةُ وتلك الدعوةُ النبيلةُ إلى ما بلغته اليوم. ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

صلاح عبد الستار الشهاوي*



لماذا لا تهضم المعدة نفسها؟

يتكـون جسـم أو جـدار المعـدة مـن طبقتين رئيسـتين: طبقـة عضليـة مكوَّنـة مـن ثـلاث طبقات من الألياف العضلية (خارجية طولية، ووسـطى دائرية، وداخليـة مائلة). ووظيفـة عضلات المعدة؛ طحن الطعام وخلطه بعصارة المعدة حتى يصبح سائلاً غليظ القـوام هـو "الكيموس"، ثم دفعه نحو الأمعـاء الدقيقة بفضل موجات من التقلص، تسري في المعدة من أعلاها إلى أدناها مرة كل عشرين ثانية، وهو ما نسميه "التمعج".

أمـا الطبقـة الأخرى، فهي الغشـاء المخاطي الذي يتجمع فـي ثنيات طويلـة عندما تخلـو المعدة، ولكنه ينبسـط عندما تمتلئ وتكسـو الغشـاء طبقة من المخاط، لها أهمية كبيرة في حماية جدار المعدة، وتنتشر بالغشاء المخاطي المبطن لجدار المعدة (٣٥) مليون غدة معدية، وهي المعروفة بـ"الليزوسوم" (Lysosomes)، وهـي عبارة عـن تركيب خلوي (Organelle) يفرز

أنزيمـات لتكسـير وتفكيك المـواد الغريبة فـي داخل الخلية، حيـث يقوم بإفراز العصارة المعدية بواقع ثلاث لترات يوميًّا. هـذه العصارة المعديـة تتكون من خميرة أو أنزيـم "الببسـين" (Pepsin)، وأنزيـم الرينين، وحمـض الهيدركلوريك، بالإضافة إلى العامل الداخلي المنشأ اللازم لامتصاص فيتامين (ب١٢).

يعمل أنزيم الببسين على هضم البروتينات -فقط- هضمًا جزئيًّا على هيئة ببتونات، وبعد ذلك تعمل أنزيمات الأمعاء على إتمام الهضم. والببسين يفرز في المعدة على شكل غير فعال، حتى إذا وصل إلى تجويف المعدة، حوله حمض الهيدركلوريك إلى الشـكل الفعـال، وذلـك للحيلولة دون قيام هـذا الأنزيم بهضـم البروتينـات في الخلايـا التي تفرزه وهي الليزوسـوم.

وظيفة المعدة

وظيفة المعدة الأساسية هي هضم المواد الغذائية التي نتناولها وخاصة المواد البروتينية، أي تكسـيرها إلى جزيئات صغيرة، حيث تقـوم جدران المعدة القوية بالضغط على الطعام لأربع ساعات يتحول بعدها الطعام إلى شبه سائل.

ومعنى الهضم، أن يتم تكسير كل الأجزاء الكبيرة إلى أبسط صورها، إما ليتم امتصاصها مباشرة إلى الدم، أو أن يقام عليها عمليات أخرى ليتم هضمها إلى أبسط ما يمكن أن يمتص بالدم.

فإن لم يتم ذلك التكسير بصورة جيدة، وجدنا المشكلات الصحية الكبيرة؛ كسوء التغذية والأنيميا، وعدم هضم البروتين والانتفاخـات، وغيـره مـن أمـراض الجهـاز الهضمـي التـي كثيـرًا مـا تؤرق الناس كلهـم. وللمعدة أربـع وظائف أخرى، هـي التخزيـن، والخلـط، والإفـراز، والتخلص مـن البكتريا؛ إذ تعتصـر جدران المعـدة الطعام وتطحنـه، وتعجنه وتخلطه بالعصارة المعدية.

والمعـدة دورهـا حيـوي ليـس فقـط فـي هـذه الصـورة، وإنمـا أيضًـا لأنها تعادل المواد التي تدخـل إليها معادلة "أس هيدروجينيـة"، بمعنـى أن تنظـم المعـدة الرقـم الهيدروجيني بمـا يناسـب الحامضية التي يكـون عليها الدم. لأنـه لو ابتلع الإنسـان شيئًا حامضيًا أو قلويًا، كيف يسير إلى تيار الدم بهذه الصـورة؟ فهو خطـر على جميع الخلايا والأنسـجة الأخرى. لـذا فـدور المعدة، معادلة هـذه الحامضية إلى أن تصل لنفس درجة حامضية الدم، هذه المعادلة هي ما يطلق عليها "PH".

لماذا لا تهضم المعدة نفسها؟

المعـدة مـن لحم... والمعـدة تهضم اللحـم... فلمَ لا تهضم المعدة نفسها؟!

المعـدة لها غشـاء مخاطي يقـوم بوقاية بطانـة المعدة من حمض الكلور وأنزيم "الببسين"، ولكن لا يوجد غشاء يحمي باقي عضيات الخلية من تأثير هذه الأنزيمات، لأن الأنزيمات الهاضمة موجودة فقط داخل هذه العضيات: الليزوسوم وهي تقـوم بابتلاع الأجسـام الغريبة المراد هضمهـا إلى داخلها ثم تقـوم بهضمهـا، وبذلـك تبقـى الأنزيمـات معزولة عـن باقي أجـزاء الخلية؛ وذلك عامـة أحد طرق موت الخلايا المريضة أو الخلايا التي انتهى عمرها عن طريق انفجار هذه العضيات، وتسرب الأنزيمات إلى باقي أجزاء الخلية وتحللها، ثم موت الخلية (Apoptosis).

ولمـاذا لا تقوم هـذه الأنزيمات بهضم الليزوسـوم وباقي التراكيب الخلوية (Organelle) الموجودة داخل المعدة؟

إن الانحنـاءات في جـدار المعدة الداخلـي والتعرجات، موجـودة في القناة الهضمية، ويختلف عمقها من مكان لآخر حسـب الوظيفة للمكان التي توجد فيه. نراها في المعدة تكاد تكون معدومة، وهذا لأن الطعام هنا يُهضَم، أي لابد أن يكون الوعـاء أملـس تمامًا لجـودة العمليـة واختلاط الطعـام تمامًا بالعصارة المعدية ليتم هضمه جيدًا.

والمعدة فيها تعاريج بسيطة جدًّا، وفيها معادلة للأحماض والقلويـات (PH) التـي تدخل الجسـم، معنى هـذا أن المعدة بهـا آليـة خطيـرة جـدًّا لتحميها مـن الأحمـاض والقلويات؛ لتحمـي جدارها أولاً، ولا تهضم نفسـها من عصارتها الذاتية التـي تفرزها، ومن الأحمـاض والقلويات التي تـرد إليها من الخـارج. كما أن المعدة بها غشـاء سـميك جـدًّا من المخاط (Mucus)، هـذا المخاط يعمل كعـازل بين ما هو داخل المعدة وخلايا المعدة.

هذا الغشـاء متصل متساوي السُـمْك في الجدار الداخلي للمعـدة، إلا مـن بعـض المناطـق التـي تُخـرج منهـا المعدة عصارتها المعدية، سنجد عندها أن الغشاء المخاطي خفيف، وعـادة ما يكـون مركز هذه القنـوات للداخل فـي التجاويف البسيطة جدًّا لسطح المعدة الداخلي.

أمـا هذا المخاط فتفرزه خلايا متخصصة اسـمها "الخلايا

المخاطية" (Goblet Cells) التي تفرز كمية كبيرة جدًّا من المخاط يوميًّا، وهي منتشرة بكثرة في الجدار الداخلي للمعدة لتجدد تلك الطبقة العازلة للمعدة.

يرجع ذلك إلى أن الله ﷻ قد بطّن جدار المعدة من الداخل ببطانة عجيبة معجزة، تتجدد خلاياها بسرعة مذهلة تصل إلى نصف مليون خلية في الدقيقة، بحيث تتجدد في فترة تتراوح بين يوم إلى ثلاثة أيام. وهي بذلك تفوق السرعة التي تعمل بها العصارة المعدية بما تحتويه من حمض الهيدروكلوريك والأنزيمات الهاضمة الأخرى لإذابة تلك البطانة، كما أن هذه الخلايا المتجددة دائمًا، تعمل على تكوين حاجز سميك تفصل به غشاء المعدة وجدرانها الداخلية عن الحمض والأنزيمات الهاضمة، وهذا ما يُطلق عليه "الحاجز الميكانيكي".

في الوقت الذي تتدفق فيه العصارة المعدية إلى تجويف المعدة لتختلط بالطعام، فإن بطانة المعدة تقوم بإفراز المخاط وهو قلوي التأثير، إذ يلتصق هذا المخاط بغشاء المعدة وكأنه مرهم أو كريم، ويقوم بمعادلة الحمض ويمنع تأثيره. والمخاط بذلك يعمل كحاجز كيميائي يحمي غشاء المعدة وجدرانها من التآكل أو الهضم.

خلايا المعدة قلوية التأثير، وهي بذلك غير مناسبة لنشاط وعمل أنزيم الببسين، كما أن الغشاء الذي يغلّف الخلايا المبطنة للمعدة له خاصية عجيبة، حيث لا يسمح هذا الغشاء بنفاذ أنزيم الببسين وكذلك حمض الهيدروكلوريك.

تحتوي خلايا بطانة المعدة على مضادات للأنزيمات الهاضمة، وتقوم هذه الخلايا بالالتصاق مع بعضها التصاقًا وثيقًا، بحيث لا تسمح بالنفاذ لأي مادة هاضمة من تجويف المعدة إلى جدران المعدة الداخلية.

إذن، كلما توغلنا في أسرار خلق الله وعاينناه كلما شعرنا بمدى جهلنا وضآلة علمنا... وصدق الله حين قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإسراء:٨٥)، ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(المؤمنون:١٤). ■

(*) باحث في التراث العربي والإسلامي / مصر.



د. عبد الإله بن مصباح*



الإنسان عمَد الكون

من المعلوم في كل بناء أن يسبق تشييدَ المبنى تحديدُ المعنى. كذلك هو شأن الكون، قبل أن يكون مبناه كان الإنسان في لب معناه عينَ القصد من تصميم نُسقه، وسرَّ المغزى من ترتيب نُظمه؛ بحيث سبق تشييدَ مبنى الكون تحديدُ المعنى الذي من أجله أقيم وهو الإنسان، الذي على مقاسه فُصّل بنيانه وعلى طباعه صُمم نظامه. فإذا وقفتَ متأملاً منظومة الكون بين أسطُر مبناها وأبحُر معناها، فستجدها تشدو لك بمعزوفة رائعة تتناغم ألحانها بين جمال التألق في الحُلل وكمال التناسق في العِلل، دالة لك على أن الذي تزينت له الأكوان وترنمت له الألحان، إنما هو الإنسان الموكل إليه خلافة الأرض. فالكون، هذا البناء الرائع ذو النسق الكامل حول الأرض، لا يمكن أن يُتصور بهذه الروعة في الجمال وهذا التناسق في الكمال، إلا لمعنى دقيق وقصد عميق غايتُه الإنسان الكامل الذي من أجله خُلق، إذ كان مستحضرًا في صلب موضوعه منذ اللحظة الأولى لبنائه.

الكون نسيج متجانس

فإذا استقريت مجمل المشاهدات الفلكية لعلماء الفضاء مستحضرًا هذه المعاني، فستجدها تُجلّي لك الكون "نسيجًا متجانسًا" (Cosmic Web) في "توسع" (Expansion) غير محدود، يجري في جميع "الاتجاهات الكونية" (Isotropy) وكأن الأرض في وسطه. هذا التوسع الكوني الذي انطلق مع حادثة فتق الرتق التي رفعت السماوات عن الأرض، المشار إليها في القرآن الكريم بقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾(الأنبياء:٣٠)، والمعبر عنها في العلوم الفلكية بكلمة (Big Bang) أو "الانفجار العظيم"، هو سارٍ في الكون بسرعة تنافر بين المجرات، تزداد بنفس النسبة التي تزداد بها المسافة الفاصلة بينها كما تقر بذلك نظرية "هابل".[1] وعليه فبما أن سرعة هذا التوسع تبقى متصاعدة بتصاعد المسافات الفاصلة بين المجرات، دون أن تُمد بأية قوة محركة رغم وجود عامل التجاذب الحاصل بين المجرات، اللهم إلا تلك القوة الأولية الناتجة عن وقع الانفجار الذي تولد عنه فتق الرتق، فذلك يعني أن هذا التوسع الساري في الكون هو قائم بقوة قادر، كما دلت عليه الآية في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾(الذاريات:٤٧) التي توحي بأن الله هو الذي يتولى مهمة التوسيع بفاعلية منه، يبثها سبحانه في الكون ليظل في انتشار مستمر. ولا ينبغي أن يُفهم التوسع على أنه نتيجة عفوية لفارق الكثافة بين الأجرام ومادة الكون، تنجم عنه قوى نابذة تؤدي إلى تنافر الأجرام وتباعدها في الكون، كشأن بالونات هواء موضوعة داخل جسم مادي أكثر كثافة كالماء مثلاً؛ فهي لابد أن تتصاعد إلى أعلى وتتنافر في اتجاهات مختلفة، فهذا لا يمكن أن يحصل في الكون، لأن عامل الجاذبية بين الأجرام يلعب من جهة أخرى دورًا مضادًّا.

إذن، هناك قوة تتولى توسيع الكون في نسق التناغم بين مكوناته، ولولاها لأطبقت السماوات على الأرض ولانقبض الكل على الإنسان. وتلك هي قوة الله التي تحفظ الكون من الانكماش بفعل مباشر منه سبحانه، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحج:٦٥). ولذلك فالله ﷻ لما وصف لنا ظاهرة التوسع، نسب المهمة إلى ذاته العلية وأنه يتولاها سبحانه بفعل مباشر صادر عن قوته الخفية. وأكد لنا سبحانه ذلك، من خلال صيغة التوكيد التي جاءت بها الآية ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ للدلالة على قوة في الفعل، تقابل فعلاً مضادًّا تمثله تلك القوة الجاذبة التي تعمل في الاتجاه المعاكس على تجميع الأجرام في الكون، الذي من خلال خصائصه الفيزيائية يبدي نزوعًا شديدًا إلى الانقباض.

> **إن الإنسان عمَد السماوات والأرض، وإن العالم لا معنى له بدون وجود الإنسان، وإن الإنسان كان المقصود من خلق السماوات والأرض، فإذا انقضى أجله خرت السماوات على الأرض بزواله، وانتقلت العمارة إلى الآخرة من أجله.**

ولعل ذلك ما خلصت إليه نتائج أحدث أبحاث علماء الفضاء من مجموعتين مختلفتين للبحث العلمي؛ مجموعة "Supernova Cosmology Project"، ومجموعة "High-Z Supernova Team".[2] هاتان المجموعتان تبيَّن لهما من خلال المشاهدات الفضائية وقائع مذهلة؛ اكتشف الباحثون من خلالها مجرات بعيدة تتباعد عن مجرتنا بسرعات تفوق بكثير ما ينبغي لها أن تكون عليه. مما يعني -كما فسروه- أن سرعة التوسع في الكون تتصاعد كما لو أن قوة غامضة سمّوها "الطاقة الظلماء" تعارض قوة الجاذبية بين الأجرام التي تعمل من جهتها على تجميع الكون وانكماشه. وهذا جعلهم يندهشون، واضطرهم إلى الإقرار بضرورة وجود قوة خارقة في عالم آخر يقابل هذا الذي نحن فيه، هي التي تمد عالمنا بالطاقة وتتولى تدبير نظمه كما جاء في تقاريرهم.

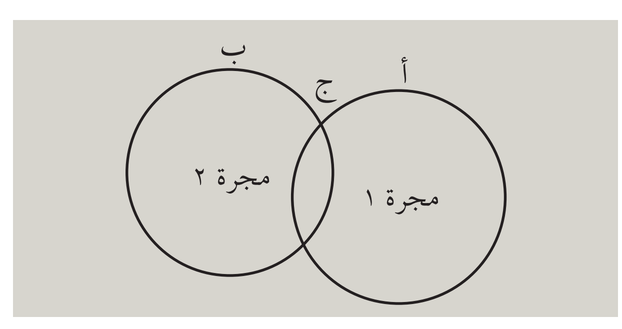
السَّبْح والفاعلية الذاتية

من جهة أخرى، إذا رجعنا إلى ما تنطوي عليه حقيقة هذا التوسع الكوني، من خلال وقوفنا على حركة الأجرام السماوية في نسق هذا التوسع المعبر عنها في كتاب الله بعملية السبح الواردة في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(الأنبياء:٣٣)، فسنجد أن ظاهرة التوسع الكوني -حتى تنضبط في نسق منسجم- كان لابد لها أن تقترن بتناغم الفاعليات الذاتية المبذولة من مختلف الأجسام السماوية.

ففي الاصطلاح اللغوي والاستعمال القرآني لكلمة "سبح"، نجد أن هذه الكلمة تعني كما قال القرطبي رحمه الله[٣] في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً﴾(المزمل:٧): "الجري والدوران ومنه السابح في الماء لتقلبه بيديه ورجليه، وفرس سابح أي: شديد الجري". وهذا يفيد ضرورة وجود عامل تأثيري لقوة ذاتية في الجسم حتى تتم عملية السبح. فإذن، هي حركة ناتجة عن طاقة محركة من داخل الجسم، كما يحصل ذلك عند الطيور السابحة في جو السماء، أو الحيتان السابحة في عرض البحار، التي إذا رأيتها انسجمت في لوحات سبح جماعي فلحصول تناغم تواصلي بينها.

إلا أن دور الكثافة يبقى مع ذلك قائمًا بين الجسم السابح والمادة التي يسبح فيها، بحيث لا يتسنى لأي جسم مادي أن يتنقل بحركة ذاتية فيه، إلا إذا كان في وسط مادي أقل كثافة من كثافته. وكلما ازدادت كثافة المادة التي يسبح فيها إلا وصعبت عليه الحركة. وبذلك جاء التعبير القرآني: ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(يس:٤٠) دالاً على تناغم حركة الأجرام السماوية في نسق السبح العام المنضبط بفعل الفارق بين كثافة مادة الأجرام وكثافة مادة الكون من جهة، وبين كثافة كل جرم مع الجرم الذي يحوم حوله من جهة أخرى... مما يجعل القمر يدور حول الأرض، والأرض بقمرها تدور حول الشمس، والشمس بكواكبها في فلك المجرة، وكل مجموعة تنضبط في فلكها داخل منظومة الكون الفسيح.

إذن، هذه الفاعلية الذاتية التي أودعها الله تعالى في كيان الأجسام السماوية لتظل سابحة في الفضاء إلى مدة أجلها، تضفي عليها من الانتظام والانسجام ما لا يمكن التعبير عنه إلا بما جاء به الوصف القرآني في قول الله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾(الملك:٣). ولعل هذا ما وصلت إليه أحدث البحوث العلمية لأشهر عالم فلك أمريكي هو "ستيفن واينبرغ"، الحاصل على جائزة نوبل[٤] الذي رفع الستار عن حقيقة لم تكن معروفة من ذي قبل، وهي ظاهرة التجانس الحاصل في الكون. فأظهر من خلال أبحاثه أن الأجسام السماوية تخضع لظاهرة بديعة من التجانس، تتداخل فيها المجرات فيما بينها محيطة بالأرض من جميع الجهات. وهذا يفيد أن الخصائص المميزة لكل مجرة ستتوحد في انسجام تام مع خصائص المجرات الأخرى، كما بيّن ذلك موضحًا في الشكل التالي:



هذا الشكل يُجلي لنا حقيقة هذا التجانس؛ بحيث إذا كنتَ في المجرة (١)، فإنك ستراها تتوسط الكونَ، وترى منها المستوى الذي يحمل نقطة "أ" متميزًا بخصائصه الموحدة. ثم إذا كنتَ في المجرة (٢)، فستراها أيضًا تتوسط الكون، وترى منها المستوى الذي يحمل نقطة "ب" متميزًا كذلك بخصائصه الموحدة. فإذا تداخلت نُطُق المجرتين (١) و(٢)، تجانست الخصائص المميزة لكل واحدة منهما بمقتضى التوحد الحاصل في نقطة التقاطع "ج" وفقًا للمعادلة التالية:

أ = ج و ج = ب ← أ = ب.

فهذا الشكل إذن، يظهر لنا حقيقة التجانس الحاصل بين المجرات بمقتضى التداخل القائم بين نطقها. فإذا كانت كل مجرة لها من الخصائص ما يميزها عن غيرها، فإن التداخل بين نطقها سيلغي هذا التمايز في الخصائص ويحدث لها تجانسًا يوحّد فيما بينها. وهذا ما يضفي على الكون صفة التوحد التي تحمل في دلالاتها وقعًا قويًّا لأثر الفاعلية الخفية التي لولاها ما ترتبت نظمه في هذا التماسك العجيب، وما تشكل بنيانه في هذا التجانس البديع.

السماء وحبك نسيجها

هذا التجانس الحاصل بين المجرات والذي يشكل بناء السماء، إذا أخذناه من بعد نظرية "كوبرنيك" التي نجد لها أصولاً في التصورات الفلكية لـ"ابن طفيل"، والتي تبين فلكيًّا أن الأرض تتوسط الكون، بحيث من أية جهة من الأرض نظرتَ إلى الكون رأيته محيطًا بك، فسنجده يعبر عن تماسك رائع لنسيج الكون حول محيط الأرض، كشأن خيوط العنكبوت المحبوكة حول دائرة مركزية. وهذا التشبيه لنسيج الكون بنسيج العنكبوت الذي أصبح اليوم متداولاً في التقارير العلمية لعلماء الفضاء، بما يشاهدونه من مراصدهم الفلكية. ليس بغريب إذن ما أخذناه من بعده الشكلي، فقد

جاء في تفسير القرطبي لقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾(الذاريات:٧) أن عكرمة قال في تفسير "الحبُك": "ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب فأجاد نسجه، يقال منه: حبك الثوب يحبكه حبكًا أي أجاد نسجه". وفي الجلالين: "الحبك هي الطرق. ولعل في التعبير الدقيق لقوله تعالى ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾، إشارة إلى أن السماء هي التي تتولى مهمة حبك نسيجها، تمامًا كما تقوم العنكبوت بنسج خيوطها من جهدها الذاتي. وهو دلالة أخرى على تلك الفاعلية الذاتية للأجسام السماوية في بناء نسيج الكون كما تقر بذلك التقارير العلمية لعلماء الفلك، تلك التقارير التي باتت اليوم أكثر استعمالاً من أي وقت مضى لمصطلحات القرآن الكونية مثل؛ "نسيج الكون" (Cosmic Web)، و"بناءه" (Cosmic Building)، و"توسعه" (Expansion)، و"تزيينه بالمصابيح" (Beads on a String)، و"حبكه" (Filaments)، وما إلى ذلك من المصطلحات التي تؤكد السبق العلمي للقرآن الكريم ودقة تعبيره البلاغي.

فالكون، هذا البناء الرائع ذو النسق الكامل حول الأرض، لا يمكن أن يُتصور بهذه الروعة في الجمال وهذا التناسق في الكمال، إلا لمعنى دقيق وقصد عميق غايتُه الإنسان الكامل الذي من أجله خُلق، إذ كان مستحضرًا في صلب موضوعه منذ اللحظة الأولى لبنائه.

وحدة المنشأ وآنية التكوين

إذا تتبعت هذه "الحبك" في الكون إلى مركز النسيج، وصلت إلى مجال السماء الدنيا وهي المحيطة مباشرة بالأرض، فوجدتها زينت للإنسان بالمصابيح. فإذا أتممت المسير في اتجاه المركز، ولجت نطاق ما بين السماوات والأرض الموصوف عند الله بقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾(مريم:٦٥)، فتبين لك المغزى من الإشارة إلى البينية في التلميح إلى مركزية الأرض من السماوات السبع المحيطة بها... تلك البينية التي تحمل في طياتها دلالات قوية على وحدة المنشأ، لا يسطع ضوؤها إلا من خلال إطلالنا على البعد الزمني لنمو كل من السماوات والأرض. فقد جاء في كتاب الله ما يشير إلى تقديم خلق السماوات على خلق الأرض، كقوله ﷻ: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾(النازعات:٢٧-٣٠)، كما جاء فيه أيضًا ما يفيد تقديم خلق الأرض على خلق السماوات، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٩)، مما يعني أن خلق السماوات والأرض يبقى مشمولاً في تدبير الله المنزه عن الزمان والمكان، بخاصية المصاحبة الزمنية التي تدل على وحدة المنشأ وآنية التكوين. وهو ما وقف عليه المفكر الإسلامي الفرنسي "موريس بوكاي"،(٥) حيث قال في شأن التحديد الزمني لمراحل خلق السماوات والأرض: "المذكور (يعني في القرآن) هو مجموعتان من الظواهر، جزء منها أرضي والآخر سماوي. وقد حدث كلاهما في اتصال مع الآخر، وبالتالي فذكر هاتين المجموعتين من الظواهر، يعني أن الأرض كانت بالضرورة موجودة قبل أن تمد، وعليه فقد كانت موجودة حين بنى الله السماوات. وينتج من هذا فكرة المصاحبة الزمنية لنمو كل من السماوات والأرض بشكل تتداخل فيه الظاهرتان".

من ناحية أخرى، ومما يزيد مشهد وحدة بنيان السماوات والأرض وضوحًا، ما جاء به كتاب الله من وصف لتوحد أقطار السماوات والأرض في الإشارة الواردة في قول الله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾(الرحمن:٣٣)؛ فكون كلمة "أقطار" ورد ذكرها موحدًا بين السماوات والأرض، يعني أن السماوات والأرض شكلت -وما تزال- وحدة متكاملة، لأن القطر في الاصطلاح الهندسي، يعني الخط الواصل بين طرفي شكل معين مرورًا بمركزه... فإذا تصورنا الأقطار كخطوط تمر بمركز الأرض لتستقيم في جميع الاتجاهات السماوية المتعامدة مع سطحها، فسيبدو لنا عالم السماوات والأرض كشكل متكامل تحيط فيه السماوات بالأرض حول مركز كائن في نواتها. وذلك ما يحمل الإشارة إلى توسط الأرض لعالم السماوات، ووجود الإنسان في قلب هذا البناء.

الإنسان هو المقصود

وهنا يبدو لنا مضمون قرار الأرض من مفهوم التوسع القائم



في البناء السماوي المتعامد معها الوارد في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾(غافر:٦٤). فالكل يشكل وحدة متماسكة بين كتلتين لا ينبغي لأي منهما أن تزول عن الأخرى، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾(فاطر:٤١) في إشارة إلى أن السماوات -وإن ورد ذكرها بصيغة الجمع- فهي لا تشكل في سياق الآية سوى كتلة واحدة تقابل كتلة الأرض في تماثل شامل. كما يقر بذلك فعل "زال" الذي جاء بصيغة المثنى "تزولا - زالتا" وليس بصيغة الجمع، للدلالة على تطابق كتلتين كانتا ملتصقتين عند بدء التكوين: ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ ففصل الله بينهما ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ بظاهرة التوسع التي انطلقت بحادثة فتق "الرتق"، لتظل سارية في جميع الاتجاهات الكونية المتعامدة مع الأرض، مما يوحي بأن الأرض كانت في قلب البناء الكوني منذ اللحظة الأولى، وأن الإنسان الذي من أجله خلقت، كان قبل أن يوجد فيها مستحضرًا في صلب موضوعها، وكأنه كان عين القصد من كل ذلك.

وهذا ما ختم به عالم الفيزياء الفلكية الأمريكي "ستيفن واينبرغ" كتابه "الثلاث دقائق الأولى للكون" قائلاً: "من المستحيل ألا يعتقد الإنسان بوجود علاقة خاصة بينه وبين الكون، أو أن يعتقد بأن الحياة إنما هي إفاضة لسلسلة حوادث راجعة إلى الدقائق الثلاثة الأولى للكون، بل من المؤكد أننا كنا مستحضرين منذ البداية". وهو ما سبقه إليه "ابن عربي" منذ أزيد من (٩٠٠) سنة في كتابه "نقش الفصوص"[٦] الذي خلص فيه -رحمه الله- إلى "أن الإنسان عمَد السماوات والأرض، وأن العالم لا معنى له بدون وجود الإنسان، وأن الإنسان كان المقصود من خلق السماوات والأرض، فإذا انقضى أجله خرت السماوات على الأرض بزواله، وانتقلت العمارة إلى الآخرة من أجله".

إلا أن هذا الإنسان العمَد الذي من أجله خلق الله السموات والأرض، والذي من أجله يمسك سبحانه السماء أن تقع على الأرض ليس أي إنسان، وإنما ذاك الذي نجد الإشارة إليه واردة في قول رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة وفي الأرض من يقول الله الله" (رواه مسلم)، أي ذاك الإنسان الخليفة الذي من أجله يؤخر الله قيام الساعة. لأنه إذا كان القرآن خاطب برفع السماء بلا عمَد في قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾(الرعد:٢)، فإنه بالمقابل يخبرنا في قوله سبحانه: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحج:٦٥) أن ذلك الرفع الذي تولاه سبحانه بقوته وحفظ به العباد برأفته ورحمته، إنما هو من أجل ذلك الإنسان الذي بصفاء فطرته ونقاء سريرته، بقي منسجمًا مع نظام الكون، متكاملاً مع كماله، قائمًا بحق الخلافة. فإذا انعدم الكمال من الإنسان اختل كمال الكون لانعدام المناسبة، فقامت الساعة التي كما جاء في الحديث: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق" (رواه مسلم). ■

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

الهوامش

(١) Hubble (1936): The realm of the Nebulae, Yale University Press

(٢) Sciences et Vie H.S. n°:221, Dec. 2002, Paris, p:37.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الشعب، القاهرة.

(٤) Weinberg S. (1978): Les Trois Premières Minutes de l'univers. Ed. Seuil, n°:144, p:211.

(٥) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، لموريس بوكاي، دار المعارف ١٩٧٨، بيروت.

(٦) نقد النصوص للشيخ بدر الدين عبد الرحمن بن أحمد الجامي (ت ٨٩٨هـ) في شرح نقش الفصوص، للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي الحاتمي (ت ٦٣٨هـ)، دار الكتب العلمية ٢٠٠٥، بيروت.

نعمان ترك أوغلو*

الوقف العثماني

حضارة واقتصاد

أُسست الأوقاف في التاريخ الإسلامي، من أجل تقديم الخدمات المختلفة إلى الإنسان والأحياء الأخرى من الحيوانات. وكانت مؤسسات الأوقاف -بلا شك- واحدةً من العناصر المؤثرة التي استطاعت الارتقاء بأنماط العيش وتأمين الحاجات الاجتماعية للناس الذين يعيشون في ظل الدولة العثمانية حتى في مناطقها النائية.

وإذا ما تأملنا في مفهوم الوَقْفِ لدى الدولة العثمانية، نجد أنه مزيج من الشرقي الممتد من حضارة الأيغور إلى السلاجقة، والغربي الممتد من الإمبراطورية الرومانية إلى الإمبراطورية البيزنطية. فقد ورثت الدولة العثمانية هذا الميراث الممتزج الديناميكي، وطورته وصبغته بقيمها وثقافتها الدينية.

لقد لعبت هذه المؤسسات القانونية، دورًا هامًّا في تطوير الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدى الدولة العثمانية والبلدان الإسلامية كافة. يقوم النظام الوَقْفي على فعالياتٍ مؤسساتيّة قانونية، للرعاية الاجتماعية



التي تضمن اسـتمرارية المجتمع. وبهذا المعنى، فإن فعاليات الأوقـاف التـي نشـطت فـي الدولـة السـلجوقية والعثمانيـة، نمـت نمـوًّا كبيـرًا بتأثيـر الحقـوق والأحـكام الإسـلامية.

ويعتبر "أورخان غازي" ثاني سلاطين الدولة العثمانية، هو أول مَن أسس نظام الأوقاف التي نمت بشكل منسجم بالنمو الاقتصادي والسياسي للدولة. وعندما أمر أورخان غازي ببناء أول مدرسـة عثمانيـة فـي إزنيك، أوقف لها مـن الأموال غير المنقولة (العقارات) لتسد حاجاتها من المصاريف والنفقات. واقتـدت بها أوقـافٌ أخرى قامت لأغـراض مختلفة، كتقديم الأمـوال لليتامى، وللأرامـل، وللغارميـن المدينين، وكتوزيع الخضـار والفاهكـة للمواطنيـن، وكرعايـة الكبـار العاجزيـن كقـوّاد القـوارب والحمّاليـن، وكتأميـن إرضـاع الأطفـال، وتجهيـز البنـات للـزواج، وتأميـن بَـدَلَ الأوانـي والصحاف التي يكسـرها الخدَم لكي لا يتعرضوا للعقاب من أسـيادهم، وكإطعام الطيور، وشـراء الألعاب للأطفال، وتأمين حاجيات المسـافرين، والإنفـاق علـى طلبة العلم وتأميـن الإقامة لهم، وتأميـن العمل للعاطلين، وكذلـك التدريب المهني، ومؤازرة المفلسـين والمدينين، وتزويج الشـباب، وحماية الحيوانات، وتأميـن نظافـة الطرقـات... بالإضافـة إلـى تأسيس أوقـاف تمويليـة لشـق قنـوات الميـاه، وإنشـاء القناطـر، وبناء سـبُل الميـاه، وحفـر الآبار، وبناء المـدارس والخانات والحمامات والجوامـع والطـرق والأرصفـة والجسـور... وبتمويـلٍ مـن الأوقـاف قامـت المشـافي بتقديـم خدماتهـا للمحتاجيـن، وتقاضـى الأطبـاء أجورهم منهـا، ويجري في هذه المشـافي عـلاج المرضـى مـن غيـر تمييـزٍ فـي لـون أو عـرق أو دين، ويجـري كذلـك تأمين الأطباء، كمـا يتم تقديم الـدواء مجانًا إن لـزم الأمـر، وتقديم وجبة أو وجبتين مـن الطعام يوميًّا في العمـارات لأبناء السـبيل والمسـافرين والفقراء والمسـاكين.

مؤسسة الأوقاف والاقتصاد العثماني

النظـام الاقتصادي فـي الدولة العثمانية -إلـى جانب الإقطاع الـذي ورثته من الدول الإسـلامية المتلاحقة- كان يقوم على مؤسسات الفتوة والآخية التي تعتمد على العدالة في أساسها. كان الاقتصاد العثماني يعتمد بنسـة كبيرة على الزراعة، الأمر الـذي أكسـب أنظمـة الأراضـي مكانـة متميـزة ضمـن البنى الاقتصاديـة العثمانية. ونظام الأراضي هـذا، كان يتمثل بنظام التيمـار؛ وهو نظام يتم من خلاله اسـتخدام الأراضي من قبل الرعايا مقابل الوفاء ببعض الالتزامات كتوريد عُشْر المحصول لصاحـب التيمار، ودفع الضرائب المقررة. كما كان أصحاب التيمـار بالمقابـل، ملزميـن بتقديـم الجنود إلـى الجيش أثناء الحرب، وذلك بما يتناسب مع حجم محصول تيمارهم. ظل التيمـار قائمًا كوسـيلة اقتصادية للقوة العسـكرية العثمانية، إذ لـم تقم الدولة بجمـع الموارد الزراعية فـي مركز واحد، إنما أعطتها لسـباهية التيمار (الفرسـان) لتتمكن من تأمين جنودها أثنـاء الحـرب من جانب، ومـن تأمين مواردهـا الزراعية أثناء السِّـلم من جانب آخـر، وهذا وفّر لها نظامًـا ديناميكيًّا حركيًّا بلا شك.

في القرن السـادس عشـر، كانت نسـبة ٢٠٪ من الأراضي تدخـل ضمـن نظـام الأوقاف لـدى الدولـة العثمانيـة، وكان حوالـي ١٥٪ مـن موارد الدخل للأوقاف تتكون من الأسـهم المقبوضة من واردات الدولة. ففي هذه الحقبة، كانت واردات الأوقاف تشـكل ١٢٪ من بين الـواردات العامة. وقد ازدادت هـذه النسـبة فيمـا بعد لتبلـغ ٢٠٪، مع الأخذ بعيـن الاعتبار، أن واردات أراضـي الأوقـاف فقط هي الداخلة في حسـابات النسـب السـابقة. هذا وقد وصلت نسـبة رجال الدولة الذين قامـوا بتأسـيس الأوقـاف في القرن التاسـع عشـر إلى ٤٢٪، ونسـبة ١٦٪ من العلمـاء، و٩٪ من أصحاب الطرق الصوفية، و٢٪ مـن أصحاب الحـرف والصناعات، و١١٪ من أصحاب مختلفي المهن، و١٨٪ من النساء.

ونظـام التمويـل الذي تقـوم عليه الأوقاف آنـذاك، يملك دورًا مهمًّا في خدمات الثقافة والتعليم والصحة والبنية التحتية وأشـغال المرافـق العامـة والخدمـات الدينيـة والاجتماعية، عـلاوةً علـى المسـاهمة فـي تأميـن التمويـل والبنيـة التحتية اللازمـة للضمـان الاجتماعـي، والعمل الخيـري في مختلف الميادين. ففي تركيا اليوم -مثلاً- يبلغ الإنفاق الإجمالي على الصحـة، والتعليم، والضمان الاجتماعي، والفعاليات الدينية، والخدمات العامة، (١٠٠) مليار ليرة تركية! وهذا الرقم الذي يعـدّ عبئًا ثقيلاً على ميزانية الدولة في عصرنا، كانت الأوقاف تقوم بحمله لوحدها في العهد العثماني.

الأوقاف والخدمات العامة

كانـت الأوقـاف تلعـب دورًا مهمًّـا فـي الإعمار والإسـكان إبـان العهد العثمانـي. فالخدمات العامة التـي تتلقاها المدن، ومؤسسـات الرعايـة الاجتماعيـة، والخدمـات التعليميـة،

والدينيـة، وكل الحاجـات الاجتماعيـة، كانـت تلبـى من قبل مؤسسات الأوقاف.

لقد تم دعم الأوقاف عن طريق مصدرين أساسيين: الأول هو المؤسسات الوَقْفِيّة القائمة على مصادر الدولة، وهي على الأغلـب أوقـاف يقوم بتأسيسـها رجال الدولة وعلى رأسـهم السـلطان وأبناء آل عثمان. والميزة الأساسـية لهذه الأوقاف، تكمـن في تحويل جزء من الأموال المخصصة للبيروقراطيين مـن قبـل الدولة، واسـتخدامها في الأنشـطة الوَقْفِيَّة الخاصة. ونرى أن تشكيل المؤسسات الوقفية التي تستمر في عطاءاتها حـول سـد الاحتياجات الدينيـة والعلمية والصحيـة والثقافية للمـدن، أصبحت تقليدًا متّبعًا بين رجالات الدولة. والمصدر الثانـي لنظام الأوقاف، يشـمل أوقـاف المواطنيـن العثمانيين الأخيـار، الذيـن يبتغون مرضـاة الله، ويسـعون وراء الأعمال الصالحـة التي تفيد الشـعب والمجتمع. وهـذه الأوقاف وإن كانـت صغيـرة الحجم من حيـث التمويل، فإنهـا لعبت دورًا كبيرًا لصالح الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

وعليـه فإن هـذا النوع من نظـام الأوقـاف الخيرية، الذي أبـدى تطـورًا مسـتمرًّا فـي العهـد العثمانـي، شـكّل عنصـرًا مهمًّـا في تمويل الخدمات، وسـاهم في نمـو المدن العثمانية وازدهارها. ومن ثم أدت هذه الأوقاف مهمّة كبيرة في ارتفاع مسـتوى المعيشـة ومن ثم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في كافة أرجاء الأراضي العثمانية.

إذن، تمتعـت الأوقـاف بمكانة رفيعـة مرموقة لدى الدولة العثمانيـة، وأصبحت جزءًا أساسـيًّا من حضارتهـا. إذ أقامت الخانات التجارية الوقفية، والأسـواق لكافة الأمتعة والسـلع؛ من أقمشـة ومجوهرات وأسـلحة... وشيدت القصور الوقفية العديـدة علـى الطـرق بيـن المـدن والمناطق لتحـط القوافل التجاريـة وقوافـل المسـافرين رحالها، وتسـتريح وتأمن شـرَّ الأشـقياء وقطـاع الطـرق... عـلاوةً علـى أن هـذه الأوقاف، ساهمت في تطور الفنون الجميلة كالخط والتذهيب والزخرفة والأبرو (فن الرسـم على المـاء) وتجليد الكتب، حيث كانت سـببًا لآثار فنية عالية المسـتوى. كما أن للأوقاف أهمية كبيرة أيضًـا، في مجـال اللغة والثقافة والتاريـخ والقانون وحتى في الفولوكلور.

باختصـار، لم تترك الأوقاف لـدى الدولة العثمانية، ميدانًا من الميادين الاجتماعية، ولا أرضًا من الأراضي العثمانية، إلا ودخلتهـا وقدمـت الخدمات لأهلها. وبفضـل هذه الأوقاف، اسـتمرت خدمـات التعليـم، والصحـة، والخدمـات الدينية، والثقافيـة، مـن غير خلـل أو تقصير، حتى في فتـرات المِحَن والأزمات الداخلية والخارجية للدولة.

ومما يجدر ذكره، أن الأوقاف التي تقدم الخدمات الثقافية والاجتماعيـة للمجتمـع اليـوم، والتـي تتبناهـا الـدول وتقوم هـي بإدارتها وتمويلها، كانت تؤسَّـس وتُـدار وتموَّل من قبل أشـخاص عاديين في العهد العثمانـي! ومن الصعب جدًّا، أن نجد اليوم دولة من الدول، يقوم أفرادها باستقلال ذاتي بتمويل الخدمـات العامـة، كما كانـت الحال في الدولـة العثمانية. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.



أ.د. علي جمعة*



المنهاج النبوي والقضايا الاجتماعية الكبرى

إن الروابط الإنسانية ركن أساسي من أركان أي مجتمع بشري. فالاجتماع الإنساني كالبناء بحاجة إلى ما يربط وحداته بعضها ببعض، ويجعل منها جسمًا واحدًا. وهذه الروابط التي يستدعيها الاجتماع الإنساني، هي روابط أدبية بين أفراده في نواح عدة تجمع بينهم وتسير بهم نحو غرض واحد، وبهذا فقط يصلح المجتمع للحياة المشتركة.

وقد تطورت هذه الروابط من البساطة التي وجدت عليها في المجتمع الإنسان البدائي، حتى استقرت في المدينة الحديثة فصارت أكثر تعقيدًا وتشعبًا، وتطورت روابط المجتمع إلى علاقات متداخلة احتاجت إلى علوم جديدة، وعمليات اجتماعية واقتصادية، زادت من التعقيد والتشعب في المجتمع الإنساني.

وفي خضم هذا كله، ظهرت مشكلات اجتماعية كان لها أكبر الأثر في حياة الإنسان، كمشكلة الأمية، ومشكلات الأسرة عامة، والعلاقة بين الرجل والمرأة خاصة، ومشكلة التربية والقيم، وكذا سوء توزيع الثورة وغيرها من المشكلات التي تمثل القضايا الاجتماعية الكبرى.

هذه بعض القضايا الكبرى التي تمس مجتمعاتنا، بما لها من تبعات جسيمة تجعل لها أولوية في اهتماماتنا... وحيث إن الإسلام نسق مفتوح ودين واسع، فقد وضع جوابًا لكل سؤال وفي كل عصر وكل شأن من شؤون الأمة. وقد وصف النبي ﷺ المؤمن فقال: "وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظًا للسانه، ومن حسب كلامه من عمله،

قل كلامه إلا فيما يعنيه" (رواه ابن حبان)، وهي قاعدة في السعي لابد أن نعيها ونعي كيف نعمل بها.

والمتأمل في المنهاج النبوي، يجد أن النبي ﷺ قد وضع الأسس الجامعة التي تصلح في القضاء على الأمراض المجتمعية المختلفة، ومعالجة هذه القضايا، وجعل العالم كله أمة واحدة في ظل أرقى الأصول الاجتماعية.

فهذا المنهج حوّل الروابط الإنسانية من القيام على المصالح المادية والاعتبارات العصبية، إلى روابط مستمدة من المبادئ الإنسانية والأصول العامة، التي تتفرع عنها قوانين ضابطة لتصرفات الناس في معاملاتهم.

فالمسلم الحق، يشعر بمدى جمال وكمال الروابط الإسلامية مع أفراد مجتمعه، وتتمتع روحه بالقيام بواجباته الاجتماعية، وتجده يدافع عن وشائج ارتباطه بهذا المجتمع... فهو لا يقوم بهذه الارتباطات المجتمعية طلبًا للدنيا ولا رغبة في الذكر، بل يقوم بها مدفوعًا بطلبه أكمل الغايات الاجتماعية والوصول لأرفع الكمالات الوجودية. وهذا الاجتماع هو ما عبر عنه النبي ﷺ بقوله: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادِّهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى" (رواه البخاري).

المتأمل في المنهاج النبوي، يجد أن النبي ﷺ قد وضع الأسس الجامعة التي تصلح في القضاء على الأمراض المجتمعية المختلفة، ومعالجة هذه القضايا، وجعل العالم كله أمة واحدة في ظل أرقى الأصول الاجتماعية.

أسس المنهاج النبوي في علاج المشكلات

لقد قام المنهاج النبوي على أسس عدة في علاج القضايا الاجتماعية الكبرى. وهذه الأسس هي:

١- الاهتمام بالعلم: ولا غرو فقد كانت "القراءة" أول ما نزل من القرآن الكريم، وفاض الكتاب الحكيم بآيات عدة تبين مكانة ومنزلة العلم والتعلم في شريعة الإسلام... وبيّن ﷻ أن المسلم لا يرتفع بفضيلة كما يرتفع بفضيلة العلم فقال: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(المجادلة:١١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(فاطر:٢٨).

والعلم الذي ندب إليه الرسول ﷺ وحث على النهل منه هو كل علم؛ قوامه التفكير والتأمل بالعقل للاهتداء إلى آيات الكون إلى خالقه. هو العلم الذي يجعل الآدمي جديرًا بأن يستخلف في الأرض، وينهض برسالة الله، ويدرك إدراكًا حقيقيًّا شاكرًا -من واقع علمه وفهمه- أن الخالق سبحانه، قد سخر له هذا الكون في أرضه وسمائه وكواكبه وأجرامه وشمسه وقمره ومائه وهوائه... لحكمة عميقة سامية تعبر تعبيرًا ناطقًا حيًّا عن جلاله سبحانه وجماله وأفضاله... وتدفع الآدمي عرفانًا وفهمًا وتقديرًا أن يكون جديرًا بهذا الاستخلاف، بالعلم والفهم والحكمة، والنشاط والسعي لعمار الأرض لا لخرابها، ولإثراء الحياة لا لإفقارها، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الأنعام:١٦٥).

إن العلم المندوب إليه في سنة الهادي البشير ﷺ لم يقتصر على مجال دون مجال، فقد حض المسلم على أن يضرب في الآفاق طلبًا للعلم أيًّا كان، يقول عليه الصلاة والسلام للمسلمين: "العلم خزائن ومفتاحها السؤال، فاسألوا يرحمكم الله، فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل والمعلم والمستمع والمجيب لهم" (حلية الأولياء:٣/١٩٢)، وقال ﷺ: "من خرج في طلب العلم، فهو في سبيل الله حتى يرجع" (رواه الترمذي).

٢- العمل: من أسس علاج القضايا الاجتماعية كما يظهر في المنهج النبوي، هو العمل. فلم يقتصر المنهج النبوي على الحث على العلم فقط، بل قرر أنه لا علم بلا عمل، ولا نجاح لغاية الاستخلاف في الأرض وحكمته إلا به، ولا مقياس لإخفاق الآدمي أو فلاحه إلا بعمله وسعيه وكدّه وبذله محوطًا مدفوعًا بالعقل والفهم والعلم.

ولذلك حض ﷺ على العمل بما نعلم، وربى أصحابه على تزكية أرواحهم وبناء شخصياتهم، وتحمل مسؤولياتهم الدينية والدنيوية، وأرشدهم إلى الطريق التي تساعدهم على تحقيق ذلك. ولم يكتف ﷺ بالحث على العبادات الظاهرة، بل ربى أصحابه -كذلك- على مكارم الأخلاق بأساليب متنوعة... وكان الرسول ﷺ يعرض الأخلاق مع العبادة والعقائد في وقت واحد، لأن العلاقة بين الأخلاق والعقيدة واضحة في كتاب الله تعالى.

ولأن العمل من لوازم تعمير الدنيا والآخرة، وذلك لأنه من لوازم الحياة وبقاء النوع ومقتضى الفطرة، وضع ﷺ نظامًا خاصًا للعمل فربطه بالنية، فصلاحه بصلاحها وفساده بفسادها، فقال: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى" (رواه البخاري). وتحقيقًا لمبدأ تكافؤ الفرص الذي يعد صورة من العدالة الاجتماعية، جعل النبي ﷺ العمل حقًا للفرد واجبًا على الدولة توفيره، فلا يجوز للدولة أن تتقاعس عن أداء هذا الواجب الاجتماعي الخطير حتى لا تتعطل طاقات الأفراد ونشاطاتهم، وتحرم الأمة من جهودهم ومواهبهم. ولقد كان النبي ﷺ يعين من لا عمل له بتأمين العمل، كما قرر ﷺ أنه لا امتياز لأحد في نوع معين من العمل بالنظر لغناه أو ثراء أسرته أو نفوذها، إنما فرص العمل يجب أن تكون مهيأة للجميع كل على حسب كفاءته وقدرته وموهبته... ومن هنا وجب على الدولة أن تختار للقيام بوظائفها الأصلح والأكفأ، قال ﷺ: "من ولي من أمر المسلمين شيئًا فولّى رجلاً وفي الأمة من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله" (رواه البيهقي). ولذلك كان لابد من التزام مبدأ التخصص، لتتم الكفاءة والإتقان فيما تقتضيه كل وظيفة بحسب طبيعتها.

٣- التوازن: ويتمثل في أمور عدة، منها المساواة بين الأفراد لا التساوي. فالشرع الإسلامي إذ يقول بالمساواة بين الرجل والمرأة مثلاً في الحقوق والواجبات، فإنه لا يقول بالتساوي بينهما في الصفات الخِلقية والفطرة الربانية والوظائف التكليفية... فهذا لا يقول به عاقل. وعلى هذا فإن الدعوة إلى التساوي بينهما، نوع من أنواع الظلم، والزج بكل منهما في طريق مظلم لا يتفق مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ويكلف كلاً منهما شططًا لا يطيقه، أما ما يتفق والتوازن الذي أسسه المنهج النبوي فهو المساواة.

فالمساواة في الإسلام، لا تعني أبدًا القضاء على الاختلاف أو التمايز بين الناس، إذ الاختلاف سنة كونية من سنن الله في خلقه، وهو حقيقة واقعة في الخلق، ولا يمكن محوها أو التغافل عنها، ولكن المساواة تعني العدالة، والعدالة تكون في عدم التفرقة بين الإنسان فيما يخرج عن فعله واختياره، ولذا يجب أن تطبق مفاهيم المساواة الإنسانية في إطار من احترام الاختلاف والتمايز بين الناس، وعدم الاعتداء على هويتهم الذاتية أو محاولة مسحها أو محوها.

وقد قرر ﷺ المساواة كمبدأ عام بين الناس جميعًا، وجعله مهيمنًا تسري روحه كدعامة لجميع ما سنه وقضى به من نظم وأحكام تضبط علاقات الأفراد رجالاً ونساء. وكان من تقديره لقيمة الإنسان المشتركة بين الجميع، تكريم الجنس البشري بنوعيه دون تمييز بين رجل وامرأة.

وفي حديث رسول الله ﷺ أنه قال: "إن أنسابكم هذه ليست بسِباب على أحد، وإنما أنتم ولَدُ آدم، طَفُّ الصاع لم تملؤوه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بالدين أو عملٍ صالح، حسْبُ الرجل أن يكون فاحشًا بذِيًّا، بخيلاً جبانًا" (رواه الإمام أحمد).

والمساواة بين الناس لا معنى لها إذا لم تعززها عدالة اقتصادية واجتماعية تضمن لكل فرد حقه إزاء ما يقدمه لمجتمعه، وتكفل ألا يستغل أحدٌ أحدًا أو يبخسه حقه... فالتفاوت الفاحش في الدخول والثروات، الذي نراه اليوم منتشرًا في كل الدول الإسلامية ينافي جوهر الإسلام، لأن فيه قضاء محتمًا على مشاعر الأخوة التي يريد الإسلام بثها بين المسلمين.

إن عدالة التوزيع للثروة بين المواطنين، من شأنها أن توفر لكل فرد مستوى من المعيشة تهيئه لأن يحيا حياة تليق بكرامة الإنسان، ويتوجب على النخبة من علماء الأمة بعد ذلك، أن تعمل على تأمين العمل لمن يبحث عنه، وإثابة العاملين بالأجر العادل، والتفكير في آليات لتفعيل النظام الاقتصادي الإسلامي الذي تمثل الزكاة والصدقات والوقوف فيه، ركنًا ركينًا لإعادة توزيع الدخل على الفقراء الذين لا يستطيعون ضربًا في الأرض، أو يعانون من معوقات عقلية أو جسمية، أو يرزحون تحت وطأة ظروف خارجة عن إرادتهم.

٤- العدل: وهو قضية عظمى عليها قام الملك، وخلق إسلامي رفيع حث عليه الله ﷻ في الكتاب العزيز، وفي سنة النبي الكريم صلوات الله عليه وسلامه، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾(النحل:٩٠)، ونهى النبي ﷺ عن الظلم في أكثر من حديث منها قوله ﷺ: "الظلم ظلمات يوم القيامة" (رواه البخاري)، وفيما يرويه نبينا ﷺ عن رب العزة أنه قال: "يا عبادي إني حرَّمتُ الظلمَ على نفسي وجعلتُه بينكم محرَّمًا فلا تَظالَمُوا" (رواه مسلم).

ومن مظاهر تمام العدل بين الناس، إعطاء كل ذي حق حقه، ووضع الشيء المناسب والشخص المناسب في المكان المناسب، ومثال ذلك أن وجود نخبة من الناس تتصدر لحل المشكلات، ورسم طريق الخروج من الأزمات من قوانين الله وسننه الثابتة في كونه. ومفهوم النخبة نراه بارزًا في الكتاب والسنة، ومرتبطًا بتاريخ البشر وواقعهم، بل هو واضح في سنة

الله تعالى في كونه. فقد فضّل سبحانه بعض الأزمان على بعض، وفضّل بعض الأماكن على بعض، وفضّل بعض الأشخاص على بعض، وفضّل بعض الأحوال على بعض، وجعل من هذا التباين سببًا لدفع الناس وتعارفهم وحراكهم عبر حركة التاريخ، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(الزخرف:٣٢)، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(المجادلة:١١)، ويقول: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾(البقرة:٢٥٣)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(النساء:٥٩). فجعل الله للناس رؤوسًا، وجعل ذلك طبقًا لكفاءاتهم، ورغبتهم في الإصلاح دون الإفساد، ونعى على ذلك التصور الذي يكون فيه جميع الناس في تساوٍ مطلق.

وعدم التساوي لا يعني أبدًا عدم المساواة كما سبق وبينّا، ولكن وجود النخبة والصفوة يؤدي إلى حل المشكلات، وإلى الأمن والاستقرار بين الناس. وعلى المسلمين جميعًا أن يحافظوا على هذه النخبة ويدافعوا عنها ويعينوها على تحقيق الدور الذي كلفت به... وهذا لا يعني أن هذه النخبة فوق القانون، ولكن عند توجيه الاتهامات، يجب أن تبنى على حقائق ثابتة، وليس على أحداث مختلقة أو خيالات مريضة. فوجود هؤلاء الحكماء والمحافظة عليهم، بل وإقالة عثرتهم إذا عثروا، أمر واجب على الناس جميعًا، وهو مثال للعدل بوضع الشخص المناسب في المكان المناسب، الذي يمثل أساسًا من أسس المنهج النبوي في علاج القضايا الاجتماعية.

٥- الرحمة واستعمال الرفق لا العنف: فالرحمة من الأخلاق التي مدحها الله ورسوله في الكتاب والسنة، وهي من الأخلاق التي يترتب عليها كثير من الخير في الحياة الدنيا بمجالاتها المختلفة، كما يترتب عليها كثير من الثواب في الآخرة.

ولأن هذه الأمة هي أمة الرحمة والهداية، دأب المحدثون في تبليغهم حديث رسول الله ﷺ لطلبة العلم على أن يستفتحوا بحديث الرحمة المسلسل بالأولية: "الراحمون يرحمهم الرحمان، ارحموا أهل الأرض يرحمُكم مَن في السماء" (رواه أبو داود)، وورد عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة تحث المسلمين على التخلق بالرحمة فيما بينهم ومع جميع الخلق... وقد حذر رسول الله ﷺ أمته، بأن ترك هذه الصفة الحميدة قد يستوجب غضب الله يوم القيامة حيث قال: "لا يرحم الله من لا يرحم الناس" (رواه البخاري)، وقال الصادق ﷺ: "لا تُنزع الرحمة إلا من شقي" (رواه أبو داود).

إن رسول الله ﷺ لم يكلف الناس بالدين كله مرة واحدة، بل بدأ بالأهم فالمهم، وتدرج معهم في تفصيل العقائد والأحكام طوال فترة البعثة على أساس ترتيب الأولويات، فاعتمد على تثبيت العقيدة أولاً، ثم تدرج معهم إلى بيان القيم الدينية والأحكام العامة التي نزلت على الأنبياء السابقين.

٦- مراعاة الأعراف السائدة في المجتمع: يقول ﷻ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾(الأعراف:١٩٩)، فكل ما شهدت به العادة والعرف مما لم يتصادم مع ثوابت الإسلام، قضي به لظاهر هذه الآية إلا أن تكون هناك بينة تمنع من هذا... وقد ورد في الخبر أن "ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن"، والمعنى: أن كل ما رآه المسلمون بعقولهم من العادات وغيرها مستحسنًا، فهو حسن عند الله يقبله ويعتد به، ووجه الأخذ لاعتبار العرف من هذا الخبر، أنه إذا كان كل ما رآه المسلمون مستحسنًا قد حُكم بحسنه عند الله واعتباره، فكذلك إذا كان العرف مما استحسن المسلمون في المجتمع كان محكومًا باعتباره.

٧- التدرج في التشريع: فلم يكن ﷺ يحمل الناس على الأحكام جملة واحدة، إنما كان مبدؤه التدرج... فهو القائل: "يسّروا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفّروا" (رواه البخاري). وقد كان التدرج في عهد النبوة يعتمد على محورَين أساسيَّين:

الأول: بيان الأحكام الشرعية بالتدرج حسب نزولها من السماء، وتفسيرها وبيانها من رسول الله ﷺ حتى تكامل الدين وتم بناؤه. وقد انتهى هذا الجانب بانقطاع الوحي، ولكنه يبقى نموذجًا وأساسًا أمام العلماء في الاجتهاد في المستجدات والوقائع الجديدة.

الثاني: هو التطبيق العملي للأحكام الشرعية التي كانت تنزل وتُفسر وتُبين، وكان هذا التطبيق بالتدريج أيضًا.

وقد ورد في السنة الشريفة أحاديث كثيرة تصرح بالتدرج

فـي التشـريع، مـن أشـهرها حديث إرسـال معاذ إلـى اليمن؛ فقد أرشـد رسـول الله ﷺ معـاذًا إلى منهج التـدرج في التنفيذ والتطبيـق بقولـه له: "إنـك تَقدَم على قوم أهـل كتاب، فليكن أول مـا تدعوهـم إليه عبـادة الله ﷻ، فإذا عرفـوا الله فأخبرهـم أن الله فـرض عليهم خمس صلـوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهـم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فتـرد علـى فقرائهم، فـإذا أطاعوا بها فخذ منهـم وتوقّ كرائم أموالهـم" (رواه مسلم)، فرسـم أمامـه الهـدف الأول فـي تقدير الإيمان الصحيح بالشهادتين وترسيخ أصوله في النفوس، فإن تحقـق ذلك انتقـل إلى تكليفهم بركن الإسـلام وعموده وهو الصلاة، فإن تحقق ذلك كلفهم بالفريضة المتعلقة بأموالهم.

إن رسـول الله ﷺ لم يكلف الناس بالدين كله مرة واحدة، سـواء فـي العقيـدة أو في الشـريعة، بل بـدأ بالأهـم فالمهم، وتـدرج معهم في تفصيل العقائـد والأحكام طوال فترة البعثة على أسـاس ترتيب الأولويـات، فاعتمد علـى تثبيت العقيدة أولاً، ثـم تدرج معهم إلى بيان القيـم الدينية والأحكام العامة التي نزلت على الأنبياء السابقين، ثم تدرج معهم إلى التكليف بالأوامـر النواهـي، وقدم فـي كل ذلـك الضروريات الخمس وهي المحافظة على النفس والعقل والدين والنسل والمال.

٨- مراعاة الحال: سـواء حال الإنسـان وحـال الجماعة وحال الأمة، بل حال العالم أجمع، فقد راعى ﷺ أحوال الناس فـي تطبيق الأحكام الشـرعية والأمور السياسـية والاقتصادية والاجتماعيـة، وكان تعاملـه مـع الفـرد مخالفًـا لتعاملـه مـع الجماعـة من حيث كونهم جماعـة، أو الأمة كذلك أو جميع الأمم، فلم يكن التعامل متماثلاً مع الجميع. ومن أكثر دلائل مراعاتـه ﷺ للأحـوال ما ورد فـي عدم هدمه الكعبـة، وإعادة بنائها على أسـاس إبراهيم؛ فإن قريشًـا لما بنتها اقتصرت بها، يقـول ﷺ للسـيدة عائشـة رضـي الله عنها: "يا عائشـة لولا أن قومك حديثو عهد بشـرك، لهدمت الكعبة، فألزقتها بالأرض، وجعلت لها بابين" (رواه مسلم).

إن الجمود على رأي واحد، وحكم واحد، وموقف واحد وإن تغيـرت الأحـوال، لم يكن من منهجه ﷺ. وقد رأينا النبي ﷺ يمنع الصحابة في مكة من أن يحملوا السلاح ليقاتلوا دفاعًا عن أنفسهم وهم يأتون إليه بين مضروب ومشجوج، ويأمرهم بالصبر وكف اليد، حتى إذا هاجر إلى المدينة وأصبح لهم دار ودولة، أذِن الله أن يقاتلوا.

وروى الإمـام أحمد أن النبي ﷺ سـئل عن القُبلة للصائم، فرخص لسـائل ونهى سـائلاً آخر عـن القُبلة أثنـاء الصيام... وبالبحث تبين أن أحد السائلين كان شيخًا فرخص له أن يُقبّل، وكان الآخر شابًّا فنهاه عن التقبيل. وقد كانت إجابات النبي ﷺ تختلف من شخص لآخر عن السؤال الواحد، لأنه كان يراعي أحـوال السـائلين، فيعطي الإجابة لكل منهـم بما يلائم حاله.

إن سـعة الشـريعة ومرونتها في مراعاة مستجدات الأمور، وصلـت إلـى إقامـة الحـدود التـي تعتبـر أصـلاً مـن أصول التشـريع. فلقـد علّمنا رسـول الله ﷺ أن نراعـي الأحوال التي تنشـأ، والظروف التي تسـتجد مما يسـتدعي تغيير الحكم إذا كان اجتهاديًّا، أو تأخير تنفيذه، أو إسـقاط أثره عن صاحبه إذا كان قطعيًّـا. ومـن ذلك ما ورد عـن النبي ﷺ أنه نهى أن تقطع الأيـدي في الغـزو كما روى أبو داود، وهو حد من حدود الله تعالـى. وقـد نهـى عن إقامة الحـد في هذه الحالة، خشـية أن يترتـب عليـه ما هو أبغض من تعطيلـه أو تأخيره، وهو لحوق صاحبـه بالأعداء حمية أو غضبًا. وها هو لا يعاقب المنافقين رغـم مـا بلغه عنهم، ويقول لـ"عمر" ﷺ لما أراد أن يقتل عبد الله بن أبي بن سلول: "دعْه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابـه" (رواه البخاري). وفـي هذا أعظم دليل على سـعة هذا المنهج النبوي ومراعاته للأحوال والظروف والمستجدات.

ومـع هذه المرونة وتلك السـعة، فإن هنـاك مجموعة من الضوابط يجب أن تكون معلومة، حتى لا يتم اسـتغلال الأمر فيمـا ليـس له. ومن تلـك الضوابط، أن مراعـاة الحال يهدف إلـى إبقـاء الأمور تحت حكم الشـريعة وإن تغيـرت صورتها الظاهريـة، ولا يعني بحال خروجًا على الشـريعة واسـتحداثًا لأحـكام جديـدة، ومنهـا أن أهل العلـم عندما قالـوا بمراعاة الأحـوال والعوائد ونحوها، إنمـا ذكروا ذلك لرفع الظلم عن العباد بإلزامهم بما لم يلزمهم به الشرع، ومنها أن الذي يحدد تغيـر الأحـوال والأعراف هم أهـل العلم والمعرفة بالشـرع، وليس أهل الهوى والجهل.

لقـد قام النبـي ﷺ من خلال هذه الأسـس وذلك المنهاج الشـريف، بمعالجة الروابـط الاجتماعيـة القائمـة، فأبقى على الصالح منها وقاوم الفاسد، حتى أرسى وشيّد روابط اجتماعية أسسها على أرقى نظام وأنفع منهاج يصلح لكل زمان ومكان. ■

(*) مفتي الديار المصرية.



علوم

د. حذيفة أحمد الخراط*

أسرار الجلد البشري

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(النساء:٥٦).

ماذا عن تخصيص جلد الإنسان في هذه الآية دون غيره من أعضاء الجسم؟ وما الذي قصده تعالى من كلمة "نَضِجَتْ"؟ ولماذا تتبدل الجلود حينها بجلود غيرها؟ ولماذا كان التبديل خاصًّا بالجلود؟

يتكون جلد جسم الإنسان من طبقتين هما "البشرة" (Epidermis) و"الأدمة" (Dermis). وتنقسم البشرة -وهي الجزء السطحي الظاهر من الجلد- فتتفرع إلى أربع طبقات تتوزع خلالها خلايا الجلد حتى تتمكن من القيام بوظائفها الفسيولوجية المنوطة بها. وتقسّم طبقة الأدمة -وهي طبقة الجلد الأخرى التي تلي البشرة- إلى طبقتين دقيقتين، ولكل منهما خلاياها الخاصة، وتضم بين ثناياها الكثير من الأعصاب والشعيرات الدموية والغدد الدهنية والعرَقية.

وللجلد البشري وظائف هامة، تجعله من أهم أعضاء الجسم اللازمة لاستمرار الحياة بصورة طبيعية لا يعتريها داء أو سقم. فالإنسان لا يحيا من غير جلد، وفَقْد جزء كبير منه لأي سبب كان، قد يهدد حياة المريض، وذلك لأنه يعمل حاجزًا

منيعًا يقي جسمَ صاحبه من دخول الجراثيم والأحياء المجهرية الضـارة، التـي يمكـن لها غزو الجسـم في حال عـدم تغليف الجلـد لـه، وبالتالي إصابتـه بالكثير من الأمـراض الالتهابية.

ويمنع الجلد كذلك، عملية تبخّر سـوائل الجسم، وبذلك تتم المحافظة على رطوبته ضمن حدودها الطبيعية. ويسـاهم الجلـد أيضًـا في تنظيم درجة حـرارة الجسـم، إذ يعمل على ضبـط درجة الحرارة عنـد حدودها الطبيعيـة، وبذلك يتمكن الجسم من القيام بتفاعلاته الحيوية بشكل مضبوط.

أسباب الحروق الجلدية وتصنيفها

تحيـط بنـا الكثير من مصـادر الطاقة والحـرارة، التي تتفاوت شـدتها بيـن خفيف ومتوسـط وشـديد، وذلك بنـاءً على قوة المصدر ومقدار ما ينبعث عنه من طاقة.

وتضـم مسـببات الحـروق الجلديـة التعـرض للسـوائل المغليـة، كالماء المُعدّ للطهي والمشـروبات السـاخنة وزيت قلي الطعام، وحروق النار (Flame Burn)، والحروق الكهربائية التي تنتج عن التعرض للطاقة ذات الجهد المرتفع، والحروق الكيميائية التي تسببها بعض الأحماض أو المواد القاعدية.

ويتم تصنيف الحروق أيًّا كان سـببها، اعتمادًا على سماكة الجـزء المحـروق مـن الجلـد، ومـدى تأثـر طبقتيه (البشـرة والأدمة)، وهنا تظهر لدينا العديد من درجات الإصابة:

١- حروق سـطحية: تصيب طبقة البشـرة فقط، وتتماثل للشفاء بسرعة في حال تقديم العلاج المناسب، وتعرف علميًّا بحروق الدرجة الأولى.

٢- حـروق عميقة: ويتخطـى تأثيرها طبقة البشـرة ليصل إلـى طبقة الأدمة، وهي ذات خطورة أكبر من سـابقتها، وفيها قـد يتأثر جـزء صغير فقط مـن الأدمة، وهنا يكتسـب الحرق صفة الدرجة الثانية.

٣- حروق أخرى أشـد عمقًا: تتأثر طبقتـا الجلد بالكامل (البشرة والأدمة)، ويُعرف الحرق حينها بحرق الدرجة الثالثة، وقد تصل الإصابة إلى ما دون الأدمة من الأنسجة كالعضلات أو العظـام، وهـي أخطـر الإصابـات على الإطـلاق، وتعرف بحروق الدرجة الرابعة.

وقفة مع حال أهل النار في الآية الكريمة

إنـه لمشـهد عظيم ذاك الذي تصوره الآيـة الكريمة، وهو يبدأ ولا يكاد ينتهي، ويَشخَص له الفكر والخيال، وقد أبدع السياق في رسمه بصورة دقيقة.

تتحدث هذه الآية عن الحال التي سـيؤول إليها أهل النار ممن كفر بآيات الله، وقد ورد في النص قول الحق: ﴿سَـوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾، وكلمة "سـوف" تعني حدوث فعل في المسـتقبل، مؤكـد محتـم لابد منه ولا مفرّ ولا ملجأ ولا منجى، فالحادثة لا شـك واقعة، وسيُسـتحق الوعـد والوعيد، وسـوف يَصلى الكافرون نار جهنم لا محالة.

وأصـل الصّلـي فـي اللغـة: الإيقاد بالنـار والابتـلاء بها، وصَليتُ الشـاة: أي شـويتها. قال الخليل: صَلِي الكافرُ النارَ: أي قاسى حرّها، وقال الطبري: سوف يُنضَجون في نار يُصلَون فيها، أي يُشـوَون فيها، وفسـر الحافظ ابن كثيـر الصلي بالنار بدخولهـا دخـولاً كاملاً يحيط بجميع أجـرام الكافر وأجزائه، فهي عن يمينه وشماله، ومن فوقه وتحته، وأمامه وخلفه، فلا يكاد يُرى لها بُدّ، ولا منها مهرب أو مفر.

ثـم وردت في الآية الكريمة كلمة "كُلّما"، وهي لفظ يدل على استمرار حدوث الفعل، وتكرار المعنى في دورة لا انتهاء لهـا... وتدل أيضًـا على عدم توقف الحـدث عند حد معين، بمعنـى أن فعـل الصلْـي بالنـار والاحتـراق بها مسـتمر دائم، وتأثير النار لا ينقطع عن الجلد، والعقوبة مستمرة والنكال لا ينفك، ويحتاج لفظ "كلما" كما يقول أهل اللغة، إلى جملتَين تترتـب إحداهما على الأخرى، وفـي مثالنا هنا نرى جليًّا، أنه كلما نضج الجلد السـابق بُدّل جلدًا آخر غير محترق، فترتب تبديلُ الجلود على نضجها.

وهكذا يسـتمر شـريط طويل وحلقـات متعاقبة من عملية الاحتـراق، التـي يتلوهـا نضـج وتبديل دون أن يقف مسـرح الأحـداث هـذا عند مرحلة معيّنـة أو زمن ما، فتغـدو العملية إذن، ذات بداية لا نهاية لها.

ثـم تأتـي الكلمـة التالية فـي سـياق الآية الكريمـة، وهي "نَضِجـت"، ويورد ابنُ منظور في لسـان العرب مادة "نَضِج"، وعنها يقول: نَضِج اللحمُ شواءً، إذا أُدرِك شَيّه.

وعلـى كل حال، فالمعنى ظاهر بيّن لا غبار عليه، واللفظ جـاء عنيفًا مُفزعًا، فهو صـورة للحالة التي يكون عليها الجلد المحروق، بعد فترة من بداية احتراقه إلى أن يبلغ نهاية عملية الشـيّ. فمـن المعـروف أن عملية النضج لا تحدث بسـرعة، بل يسـبقها مـرور وقت ليس بالقصير، من التعرض المسـتمر والمباشر إلى ألسنة النار.

وبالطبع فإن عذابًا كهذا لا يقف خلال عملية الشواء، بل إن الألـم يبدأ من لحظة تلامس النار مع الجلد ويستمر دون كلل أو ملل... ويزيد هذا الألم تدريجيًّا ليتدرج الحرق بدءًا من الدرجة



الأولى، مرورًا بالثانية فالثالثة... وهكذا تستمر عملية الحرق، وتتخرب خلايا الجلد وأنسجته تدريجيًّا، ويفقد الجلد قوامه وتماسكه، ويزول بريقه ولمعانه، وتضيع معالمه التشريحية، إلى أن يصل الأمر بالجلد إلى مرحلة الشواء التام والنضج... وهنا يكون الجلد قد تساقطت خلاياه، وأخذت أنسجته تتآكل تحت التأثير المستمر لفعل النار المحرقة، حتى تذوب تمامًا، ولم يبق في الجلد بعد الآن رمق من حياة أو إحساس.

تتوالى أحداث قصتنا هذه تباعًا ويعقب ذلك مرحلة جديدة، وهي خطوة عجيبة خارقة للطبيعة، تحدث بقدرة الله وإرادته التي لا يقف أمامها شيء، فيأتي الأمر الإلهي هنا بتبديل جلود أهل النار.

وهنا يتبادر إلى الأذهان سؤال: لماذا ورد اللفظ القرآني هنا "بدّلناهم"، ولم يقل "أبدلناهم"؟ وهل هناك من فارق في المعنى والمضمون بين اللفظين؟

في الحقيقة، إن هناك بونًا شاسعًا بين الكلمتين "بدّلناهم" و"أبدلناهم"، وتعليق أهل اللغة في هذا الموضوع، يضيف إلى قائمتنا لونًا بيانيًّا وضربًا إعجازيًّا جديدين... فالتبديل -وهو مصدر "بدّلناهم" الواردة في الآية- جعلُ نفس الشيء مكان شيء آخر، ومنه تغيير الصورة إلى صورة أخرى مع بقاء الجوهرة بعينها.

أما الإبدال فهو مصدر للفعل "أبدلناهم"، ولم يرد في آيتنا تلك، فهو تنحية للجوهر، واستئناف جوهر آخر مختلف تمامًا، أي وضع شيء مختلف تمامًا مكان شيء آخر.

وما يخصنا هنا، هو العملية العجيبة التي يحدث فيها أن تتكاثر خلايا الجلد وأنسجته من جديد، مما يؤدي إلى ظهور جلد آخر غير الذي سبق له أن احترق حتى نضج... إلا أن الجلد الجديد هذا، شبيه بسابقه، مكتمل التركيب، تام المعالم والوظيفة، يحوي كل مكونات الجلد السليم، في حين أن "أَبْدَلْنَاهُم" تعني الإتيان بشيء جديد قد يكون مختلفًا عن الجلد، والله تعالى يريد الجلد نفسه بجميع عناصره وخصائصه السابقة التي كان الخلق الأول عليها. وهكذا تستمر هذه العملية من العذاب الدائم الذي لا انقطاع له.

ويختتم الله تعالى قوله الكريم، مصوّرًا ذلك المشهد الرهيب بجملة شرطية: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، وهي تعليل لقوله تعالى ﴿بَدَّلْنَاهُمْ﴾. وهنا يظهر إعجاز بياني جديد؛ فقد ثبت علميًّا أن جلد الإنسان الطبيعي يضم في سطحه الكثير من نهايات الأعصاب الحسية، وهي نقاط الحس التي يبدأ منها صدور الشعور، فتُترجم شعور الجسم بالألم والحرارة، لأن تعرّض هذه الأعصاب الجلدية إلى مصدر الألم أو الحرارة، يؤدي إلى إرسال إشارات سريعة إلى الألياف العصبية وصولاً إلى الدماغ والجهاز العصبي في جسم الإنسان، وهناك يتم إدراكها واستبانة دلائلها، مما يعطي شعور النفس بالألم والإحساس به، وذلك بحسب عادة خلق الله تعالى وفطرته التي فطر الناس عليها.

وفي حال إصابة الأعصاب بمرض ما، أو اضطراب وظيفي كما في حال احتراق أعصاب الجلد، فإن هذه الوظيفة تتعطل، فيتوقف ساعي البريد الذي يحمل الرسائل، وتنقطع وسيلة الاتصال بين الجلد والجهاز العصبي، ويُفقد حينها الشعور بالألم تدريجيًّا إلى أن يختفي تمامًا.

إذن، فلولا عملية تبديل الجلد، التي سيخضع لها معذبو أهل النار، ولولا الأعصاب الجديدة التي ستظهر، لفَقد أهل النار الشعور بالألم حينما تنضج جلودهم أول مرة، ولغدت عملية التعذيب قصيرة وذات نهاية ستأتي وإن طال انتظارها، إلا أن قدرة الله تعالى وإرادته، أبت إلا أن يتبدل الجلد بجلد

غيره يرجع كنظيره السابق، بغية أن يدوم على أهل النار تذوّقهم للمزيد من الأذى والعذاب اللذين لا يقفان لحظة واحدة ولا ينقطعان.

ويظهر لدينا الآن سؤال جديد: لماذا قال تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾؟ وعلى من يعود الضمير هنا؟ نجيب عن ذلك فنقول: إن الهدف المقصود هنا من عملية التعذيب بالنار، هو تعذيب النفس والبدن وإيلام روح صاحب الجسد، وليس المطلب هو تعذيب الجلد نفسه. ولو أريد تعذيب الجلود ذاتها لقيل "لِيَذقنَ العذاب". وفي ذلك ورد عن الزمخشري في الكشاف: "فإن قيل كيف تُعَذب مكانَ الجلود جلودٌ لم تعص الله؟ قلتُ: العذاب موجّه للجملة الحساسة وهي التي عَصَتْ لا الجلد، وهذا يعني أن طاقة العذاب ومطارقه موجهة نحو صاحب الجلد ونفسه التي يحملها بين جنباته".

وثمة سؤال آخر يثيره هنا أهل اللغة: لماذا جاء النص ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ وليس "ليتذوقوا العذاب"؟ وهل من فرق بين الذوق والتذوق؟

نعم، هناك فرق كبير بين اللفظين، واختيار الذوق جاء في مكانه الدقيق، مصوراً للحالة التي سيكون عليها العذاب في النار. وعن ذلك يفصّل أهل اللغة الكلام، فذاق الطعام؛ أي خبر طعمه، بينما تذوقه تعني شعر بطعمه شيئًا بعد شيء.

وإن أردنا قياس ذلك على موضوعنا في ظل الآية الكريمة، نرى أن أهل النار سيذوقون عذابها، وهذا يعني أن شعورهم بمذاق العذاب لا يقف برهة ولا ينفك... فطعمه إذن دائم مستمر متواصل، ولو قيل إنهم سيتذوقون العذاب، لكان حينها طعم العذاب متدرجًا، وقد تتخلله فترات من الراحة و الهدوء، وهذا ما نفته الآية الكريمة نفيًا قاطعًا حين اختارت أسلوب ذوق العذاب.

ختامًا، فإن الآيات التي تناقش مثل هذه الحقائق العلمية المثبتة كثيرة، ولم يحدث أن أثبت العلم خلاف ما أقرّه القرآن الكريم في خبر من تلكم الأخبار، بل جاء العلم الحديث شاهدًا على صدق الرواية القرآنية، ليرشد كل ذي عقل وحكمة على أن هذا الكلام إنما هو من عند الله، ولو أنه كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا. ■

(*) اختصاصي جراحة التجميل بالمدينة المنورة / المملكة العربية السعودية.



ماء الحياة

صَحارى أرواحُنا،
لهبٌ أكبادُنا،
جمراتٌ قلوبُنا...
هيا يا رجال!
افْتحوا الأقفال،
وجودوا بالرواء،
واجعلوا السدود بالمياه تتفجّر،
وتطفح وتتدفق،
والصحارى تسقي،
واللهب تطفئ،
والجمرات في القلب تُبرِّد...
* * *

أ.د. بركات محمد مراد*

كما تغار على عرضك كذلك ينبغي أن تغار على سرِّك، فالمستهين بالسر كالمستهين بالعرض، وكما للعرض حرمة فللسر حرمة، فإفشاؤك للسر عارٌ يلحق بك حتى الموت، كالعار الذي يلحق بِمَنْ يفرِّط بعرضه.

(الموازين)

* * *

بحثًا عن "العمارة الهوية"

هل هوية العمارة الإسلامية، تبدو في قوام العمارة بوصفها سطوح وفراغات وخطوط وانحناءات وشراشيف وأدراج وأعمدة، أم في الزخارف اللاصقة على جدرانها وواجهاتها مما نراه -مثلاً- في قصور غرناطة؟

لقد اتجه أكثر المعماريين -وهذا ما لاحظه بحق الباحث عفيف البهنسي[1]- نحو الظاهر الزخرفي، فرأوا العمارة العربية من خلال الزخارف المتمثلة بالرقش والفسيفساء والمقرنصات والأفاريز والخطوط الجميلة... وكثيرة جدًا هي المنشآت الحديثة التي ادعت الأصالة بإضافة هذه العناصر الزخرفية على بناء حديث مستوح من العمارة الحديثة.

بيد أن المعمار الكبير "حسن فتحي"[2] دعا منذ الستينات، إلى الاتجاه نحو العمارة الهوية من حيث هي كتل وفراغ بدءًا بالعمارة الريفية التي ينشئها الفلاحون الفقراء. والتصميم المعماري ليس هو العمارة الداخلية، ولكن الفعاليتين تتفاوتان وتتداخلان لإنشاء العمارة، سواء كانت عمارة بورجوازية مدنية أو كانت ريفية.

والسؤال الثاني يتعلق بمفهوم الهوية المعمارية وعلاقتها بالأساليب والطراز؛ فكيف تحافظ الهوية على وحدتها في نطاق أشكال مختلفة باختلاف المكان والزمان، وباختلاف

السلطة السياسية والاجتماعية والدينية؟

ويسـهل الجواب على هذا السـؤال إذا اعتبرنا العمارة لغة مجسـدة تحمل دلالات روحية ومادية، وتقوم بوظيفة إنسانية اجتماعية بأسـاليب مختلفة، شـأنها في ذلك شـأن اللغة التي تحمل دلالات مماثلة، وتقوم بوظيفة إنسانية حضارية.

هوية العمارة هي هوية الأمة

تتجلـى هوية الأمة، من خلال وحـدة اللغة والثقافة والعقائد، وتعكس هويتها على العمارة والفنون والتراث. وتستمر هوية العمـارة باسـتمرار هويـة الأمة، وتتطـور بتطويرهـا، وتنهض بنهوضهـا، وتتفـكك بتفككها. ولذلك فـإن البحث عن هوية العمـارة هو بحث عن هوية الأمـة، وبالمقابل فإن فن العمارة يكشف عن هوية الأمة التي أفرزت هذا الفن أو ذاك.

ولأن هويـة الأمـة لا تتمثـل بفصائل الدم بـل بمعطيات الحضارة، فإن قراءة تاريخ العمارة يجب أن يبدأ بقراءة تاريخ حضارة الأمة، لأن بناء العمارة هو جزء من كيان الأمة. وبهذا المعنى فإن هوية العمارة تعني انتماء هذه العمارة إلى حضارة معينة خلفتها أمة معينة.

ومـن هنا يؤكد الباحث عفيف البهنسـي علـى الاعتراف؛ أن قطيعـة طويلـة الأمـد حدثـت بيـن ثقافتنـا وبيـن تاريخنـا الحضـاري، أورثت جهلاً بالتـراث ورفضًا له، وحققت فرصًا لتسـرب الثقافات الوافدة والدخيلة التي غيرت شـكل الثقافة الحديثـة وعبثـت بجوهرها، وهكذا أصبحـت عمارتنا غريبة عنـا، وأصبحنـا غربـاء فـي مدننـا التي تجـردت عـن هويتها الأصليـة، وأصبحنـا فـي بيئة هجينـة غيرت مـن عاداتنا ومن أذواقنا وثقافتنا.

ويتساءل الباحث؛ إذا كان التاريخ صيرورة، وإذا كان لابد لـكل قديم حديـث، وإذا كان العصر الذي نعيش أكثر انفتاحًا علـى ثقافات العالـم، وأصبحت التقنيات الحديثة وأسـاليب الفن والعمارة جزءًا من عولمة الثقافة، فكيف نستطيع تحقيق انتماء حضاري قومي في العمارة الحديثة؟

الهوية بين الأصالة والمعاصرة

إن عاملاً مشتركًا بين الأصالة والمعاصرة في العمارة خاصة، هو المقياس الإنسـاني. فإذا استطاعت المعاصرة -كما الأصالة- أن تحافظ على هذا المقياس، فإن التآخي بينهما يصبح ممكنًا، ويتجلى المقياس الإنساني في تمثل القيم الروحية والقومية والماديـة فـي العمـارة المعاصـرة. فالمعاصرة ليسـت انتهاكًا للهوية، وإلا فإن التعددية التي هي طابع الإبداع، تنسحب من كيـان العمارة العالمية لتصبح عمارة واحدة تمثل إقليمًا دوليًّا واحـدًا. إذن، بتعدد الهويات المعمارية نسـتطيع الحديث عن عمـارة عالمية، أما فرض هوية محـددة على عمارات العالم، فإنـه ينفي العالميـة ويبقي على عمارة واحـدة مهيمنة عالميًّا.

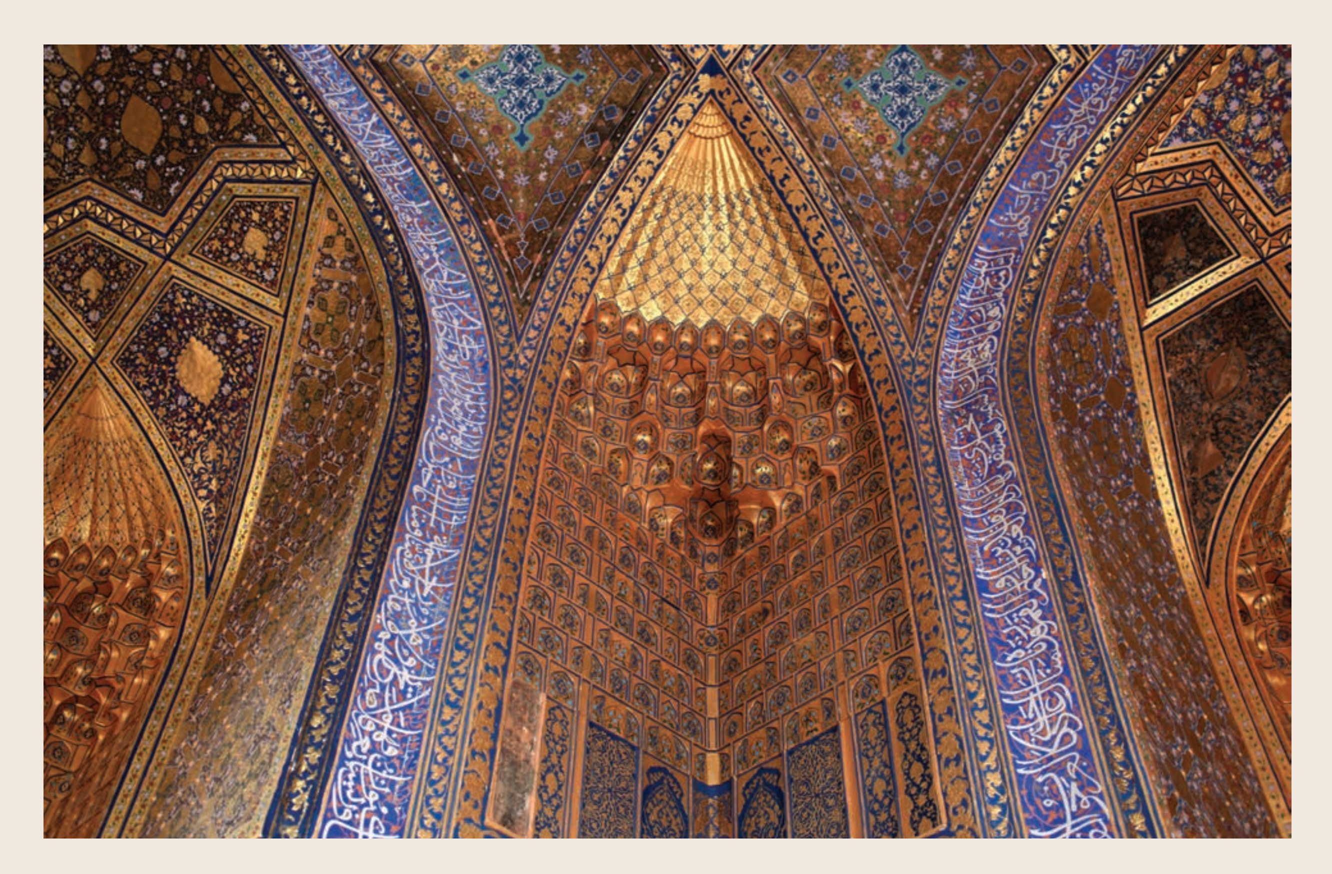
إن المسـلمين تمكنوا في فن العمـارة، الذي غطى مجالاً جغرافيًّا واسـعًا امتد من إسـبانيا (الأندلس) إلى بلاد البنغال، والذي غطى مجالاً تاريخيًّا بدأ في نهاية القرن السابع للميلاد حتى أوائل القرن التاسع عشر، أصبح مدرسة عالمية في البناء تتضمـن مـدارس وطرز فرعية كثيرة يتوفر على دراسـتها كثير من الباحثين في الشرق والغرب على السواء.

وقـد أصبحـت هناك حقـب معمارية تاريخيـة وفنية؛ مثل العمارة الأموية، والعمارة العباسية، والعمارة المغربية، والعمارة الأندلسـية، والعمـارة العثمانيـة... تحمـل كل منهـا بصمات خاصة بتلك الحقب التاريخية التي اسـتغرقتها، وتحمل طابع المكان والظروف الجغرافية والثقافية التي سـادت فيها. ومن هنـا لا يكـون غريبًا أن نجد كثيرًا مـن الطرز لمختلف العمائر الإسـلامية -سـواء كانت مسـاجد أو قلاع أو قصـور أو مدن إسـلامية كاملـة- تعبر عن خصائص فنيـة وجمالية وتاريخية، مثل الطراز الأموي، أو العباسي، أو الفاطمي، أو السلجوقي، أو المملوكـي، أو المغربـي الأندلسـي، أو التركـي العثماني.

الفن الإسلامي الموحد في روحه

هذا الانتشار الواسع لرقعة الفن الإسلامي في كل بقاع العالم الإسـلامي، وكما تبدى في العمارة الإسـلامية الضخمة لأول وهلة، لأكبر دليل على عبقرية الإنسـان المسـلم وسمو روحه (العبقرية والسمو اللتان استمدهما من روح الإسلام)، فسرت في كل إنشاءاته وصبغت كل أعماله. كان في أول نشأته يرتكز علـى العناصـر المعماريـة والزخرفيـة التي تتفـق وروحانيته، فخرجـت منجزاتـه تكاد تشـبه بعضهـا بعضًا في سـائر البلاد الإسـلامية، مع شـيء من التباين اليسير الذي تحمله كل بيئة، وتختـص به مواهب أهلها الموروثة إنشـاء وعمـارة وزخرفة وخبرة وتقاليد.

وعلـى الرغم من تأثر هـذا الفن بفنون البـلاد التي فتحها المسـلمون وخاصة الساساني منها والبيزنطي، فإنه قد استبعد منهـا الجوانـب الأسـطورية وفنـون المحـاكاة الشـكلية أو



الخاصـة، ثم عالج فنونها التجريدية بما يتفق مع تعاليم الدين الإسلامي وروحه وفلسفته، وطبيعة الرقعة العربية. وبهذا تميز الفن الإسـلامي بقسـماته عن الفنون التي تأثـر بها وعن باقي الفنون الدينية.

إن المسلمين في عصور انتشارهم، استنبطوا نظامًا معماريًّا متكامـلاً؛ من التشـكيلات والتراكيـب المعماريـة والزخرفية التي تكون في مجموعها الطراز الإسلامي الموحد في روحه وطابعـه. فجاءت تلك العمارة الإسـلامية تعبيـرًا جماليًّا لدى الإنسان من رؤية فريدة ومتميزة تجاه الواقع والمساحة والزمن والتاريخ، بل والأمة نفسها، وأيضًا نحو ارتباطه العضوي بكل هذه العوامل.

مستشرقون منصفون

من هنا لا نعدم أن نجد مستشرقًا منصفًا مثل "جاستون فييت" يقـول: "إذا كان معيـار الأصالة في أي طراز من طرز المعمار هو أسـلوب الفـراغ، فإن تصميـم الجامع هـو النموذج الذي يعبر بوضوح عن جوهر عقيدة الإسـلام، بصفته دينًا أصيلاً له شخصيته المتميزة".

وكذلـك نجد المستشـرق "بوركهارت" الـذي يحدثنا عن الرمزية في العمارة الإسلامية في مؤلفه عن "الفن الإسلامي"، حيـث يجعل مـن الكعبة الأصل الذي انبنـت عليه كل تقاليد العمارة في الإسلام. فالكعبة من حيث الشكل والصفات هي النموذج الأول للفن الإسـلامي، إذ تعبر عن خميرة هذا الفن على مسـتويات الرمـز الداخلـي والشـعائري والوثيقة الصلة بالشـكل. فهـي حلقـة الاتصـال بالنسـبة للديانات السـماوية الأخرى، التي تنبثق منها كما تنبثق الفروع من أصل الشجرة.

وعـن طريـق الكعبـة -بصفتهـا النقطـة التـي يتجـه إليها المؤمنـون في الصلاة، والمركز الـذي يرمز إلى اتحاد الإرادة الإنسـانية والكونية، والقلب الذي يعبر عن الوعي بالوحدانية الربانية- يربط المؤلف بأسـتاذية فذة بين كل مساجد الإسلام والكعبـة، ويجعـل العمـارة الإسـلامية فـي كل أنحـاء العالم وكأنهـا بنـاء واحـد، وإن لم يكـن إدراك وحدتـه الكلية على مسـتوى المنظور فإنها تكون ممكنة على المسـتوى الروحي، أي من منظور التأمل العقلاني الصحيح.

فالجامع ليس فيه مركز مقدس كالكنيسـة والمعبد، وذلك أن المحراب يقتصر دوره على تحديد اتجاه القبلة، والسـاحة فـي المسـجد تحيـط بالحرم المكـي. وهكـذا تحولت بعض كنائس الشـام إلى مسـاجد، جعل امتدادها الطولي عرضًا في اتجـاه القبلـة، وبذلك أصبحت أعمدة الأروقة تعطي شـعورًا

بالراحة، وهو ما يتفق مع فكرة السكون وليس الحركة. وهي حالة التوازن التي تعبر عنها العمارة الإسلامية في كل أشكالها، بسبب اتجاهها نحو المركز الأرضي، وهذا ما يظهر في جامع دمشق بشكل جلي.[٣]

وجدير بالذكر أن مطالع القرن التاسع عشر الميلادي، قد شهدت يقظة الأوساط الأوربية إلى أهمية الآثار الفنية الإسلامية، ولا سيما الآثار المعمارية. وكانت إسبانيا أول البلاد التي أثارت هذه اليقظة، فأدى ذلك إلى إنتاج مؤلفات ضخمة في مجلدات كثيرة.

وأول رائد في هذا الميدان "جيمس كافانا ميرفي" بكتابه الذي عنونه بـ"الآثار الإسلامية في إسبانيا"، وهو كتاب يتميز حماسة لكل شيء إسلامي، لا بتصويراته الجميلة للمباني الإسلامية وزخارفها وكتاباتها فحسب، بل بعنايته بصفحة العنوان، حيث سجل المؤلف السنة الهجرية (١٢٢٨هـ) إلى جانب السنة الميلادية (١٨١٣م) التي تم فيها طبع الكتاب، ثم أتى من بعده كثير من الإسبان، مثل "دولابورد" و"جيرو دابرانجي" و"جول جوري" و"أوين جونس" وغيرهم... وحوالي ذلك الوقت، كانت فئة أخرى من المؤلفين الذين امتدت بحوثهم إلى الآثار الإسلامية بجزيرة صقلية، وذلك عن طريق بحوثهم في الآثار الصقلية عامة.

ويرجع المستشرق "إتنجهاوزن"؛[٤] السببُ الذي أثار هذا الاهتمام الجديد بالآثار الإسلامية إلى الحركة الرومانتيكية (أي الابتداعية) بما أثارته من الاهتمام بمعرفة المدنيات السابقة البعيدة عن زمنها ومحيطها.

يقظة أوروبا إلى فنون الشرق

ثمة دافع آخر ليقظة الأوساط العلمية الأوربية إلى دراسة الشرق وفنونه وآثاره، وهو دافع التوسع الاستعماري والسياسة العسكرية في العصور الحديثة. تجلى هذا واضحًا في إحضار نابليون -في حملته على مصر- جماعة من العلماء، لبحث شؤون البلاد المصرية بحثًا شاملاً. إذ أعد أولئك العلماء رسومات تخطيطية للمدن والمباني والعمائر الأثرية، ورسموا مناظر معمارية للشوارع والحارات والمساجد والنقوش

تتجلى هوية الأمة من خلال وحدة اللغة والثقافة والعقائد، وتعكس هويتها على العمارة والفنون والتراث. وتستمر هوية العمارة باستمرار هوية الأمة، وتتطور بتطويرها، وتنهض بنهوضها، وتتفكك بتفككها. لذلك فإن البحث عن هوية العمارة هو بحث عن هوية الأمة.

والنقود، ولم ينسوا أن يعملوا صورًا توضيحية لأنواع الصناعات القائمة بمصر وقتئذاك.

ونتج عن هذه الأبحاث كتاب وصف مصر في تسع مجلدات، وعشر أخرى للرسوم والصور التوضيحية، وأطلس للخرائط الجغرافية، وهذا الكتاب في مجموعه هو القاعدة الحقيقية والمنبع الحقيقي لمعرفة الآثار الإسلامية.

وفي أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، ظهرت دراسات تفصيلية في العمائر والمخلفات الإسلامية التي كشفت عنها جهود القوامين على الآثار الإسلامية، وهي دراسات قام على معظمها مهندسون ومعماريون ورسامون، مثل جهود "باسكال كوست" في كتابه "الهندسة المعمارية الإسلامية"، وأعقب كوست كتابه هذا، بسلسلة من الدراسات في الهندسة المعمارية الإيرانية، بالاشتراك مع المصور "فلاندان".

ثم امتدت هذه الجهود إلى الآثار الإسلامية في مصر في مؤلفات "بورجوان" (١٨٧٣-١٨٩٢)، وكذلك "يريس دافن" (١٨٧٧)، وهي مؤلفات لا تقتصر على العمارة فحسب، بل تشمل مختلف الفنون الصغرى، فضلاً عن دراسة تفصيلية دقيقة للأشكال الهندسية في الزخرفة المعمارية. ولا تزال الدراسات قائمة تحاول التعمق في فهم آثار العمائر الإسلامية وفلسفة بنائها، سواء من قبل المستشرقين أو من قبل علماء وفناني العالم الإسلامي. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

الهوامش

(١) ما بعد الحداثة والتراث في العمارة العربية الإسلامية عالم الفكر، للدكتور عفيف البهنسي، ج:٢٧، العدد:٢، أكتوبر ١٩٩٨.

(٢) انظر إلى الكتاب الذي صدر في لندن بعنوان "Hassan Fathy"، كتبه Richards, J. M., Ismail Serageldin, Darl Rastorfer.

(٣) الفن الإسلامي، لبوركهارت.

(٤) الفنون والآثار الإسلامية، لـ"إتنجهاوزن"، ترجمة محمد مصطفى زيادة، ص:٧٤-٧٥، الأنجلو المصرية، عام ١٩٥٣م.

أديب إبراهيم الدباغ*



الاستيعابية الفكرية

للكينونة البشرية في رسائل النور

بين رجال الفكر الديني المعاصر، يبقى "النورسي" من أكثرهم شدًّا للانتباه بفكره الاستيعابي والاستقصائي للكينونة البشرية بأبعادها المختلفة، واستشرافاتها على العوالم الورائية و"الماورائية" على حد سواء. فقد بلغ نزوعه الاستيعابي من العمق والسعة، إلى الحد الذي لم يعد يجد معه في التناقضات والأضداد في الفكر والحياة، معضلة تواجه الفكر الإيماني لدى المؤمنين. فما من سلب -كما يرى- إلا وينطوي على شيء من الإيجاب. فإذا ما تعودنا النظر بعمق في الأشياء، فسنرى الانتظام حتى في غير المنتظم -كما يقول- وبعض الخير في تلافيف كل شر، وبعض الحق في ثنايا كل باطل، وإشارات قوة في جوانب كل ضعف وضعيف، وبصيص نور في أطباق الظلام، وحتى تلك المذاهب الدينية المشتطة في ابتعادها عن سواء الدين، لا تخلو هي الأخرى من جزء أو أجزاء من الحق، وبهذا الجزء أو الأجزاء يشيع المذهب ويلقى القبول لدى بعض الناس.

وإنه كثيرًا ما يلفت انتباهنا إلى المعجز الخارق في إعجازيته في البديهي الغارق في بداهته، وإلى غير العادي

فـي العـادي نفسـه، وغيـر المألوف في عين المألوف... ففكره نزّاع إلى التجرد من خارجية الأشـياء، وإلى انتزاع قشرة البداهة عن البداهات، واستكناه الكينونة البشـرية مجردة من الفضوليات العالقة بها والدخول إليها من أبوابها المشـرعة الفكرية والوجدانية والحدسـية، وحتى الخياليـة وكل لطائفهـا الأخرى. ففكره استيعابي اسـتقصائي، يستوعب النفس البشـرية ويسـتقصي كل جوانبها مشيّدًا صروحـه التخاطبيـة معهـا في رسـائله علـى أسـس مـن مصداقيـة المعرفـة بحاجات جوانب هـذه النفس، وإعطاء كل ذي حاجة منها حاجته التي يريد.

> **الكينونة البشرية إذا ما تضامَّت على نفسها، وجمَّعت أجزاءها ووازنت بين متطلبات كل جزء منها، صارت وحـدة واحدة، وغدت جـزءًا مماثـلاً للتوازن الكامن في الوجود، ووجدت مكانهـا في الإيقـاع السرمدي بين الطاقـة المنطلقـة من روح العـالم، والطاقـة المنطلقـة من روح الإنسان.**

فرسـائل النـور هي نتاج هـذه المعرفة بالكينونة البشـرية، حيـث جعلـت مـن أعظـم أهدافها تحريـر هـذه الكينونة من الأثقـال التـي تشـدّها إلـى الأرض، وتحصينها مـن جواذب الشـتات في شعاب العالم واستنهاض جميع قواها ولطائفها، ثم تكريسها لخدمة الهدف الأكبر الذي خلق الإنسان من أجله وهـو العبودية الخالصة لله تعالى. فإذا مـا مات صاحب هذه الكينونـة ماتت كينونتـه كلها معه ولم يبق منها شـيء خارجًا عنها متعلقًا بسـبب من أسـباب الدنيا كما ورد في الأثر: فقد أثنـى جملة مـن الصحابة ﷺ -في حضرة الرسـول ﷺ- على رجل من الصحابة كان قد مات، فقال عليه الصلاة والسـلام: "رحـم الله فلانًـا فقد مات كله"، فقال الصحابة: يا رسـول الله أليس أحدنا إذا مات يموت كله؟! قال عليه الصلاة والسـلام: "ليـس كلكم إذا مات يموت كلـه". أي -والله أعلم- أنه ليس كل أحد يموت بكينونته كلها دون أن يتبقى منها شيء خارج هذه الكينونة في مكان ما من الدنيا. ومصداق ذلك قوله تعالى على لسـان إبراهيـم عليه السلام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُـكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الأنعام:١٦٢).

فنسـيان الطبيعـة الروحيـة للكينونـة البشـرية عنـد بعض المفكريـن إنمـا هو عسـر عقلـي يحـول بينهم وبيـن التفكير الصحيـح، فينتابهـم عندئـذ شـعور بحراجة الحياة الإنسـانية وامتلائهـا بالمخاطـر، التي قد تـودي ببعضهم إلـى الانتحار العقلـي قبـل أن يسـعفهم الحـظ ليـروا ما يجري فـي أعماق هذه الكينونة من صراعات مأساوية بين القيومية الروحية وغيرها من القيوميات.

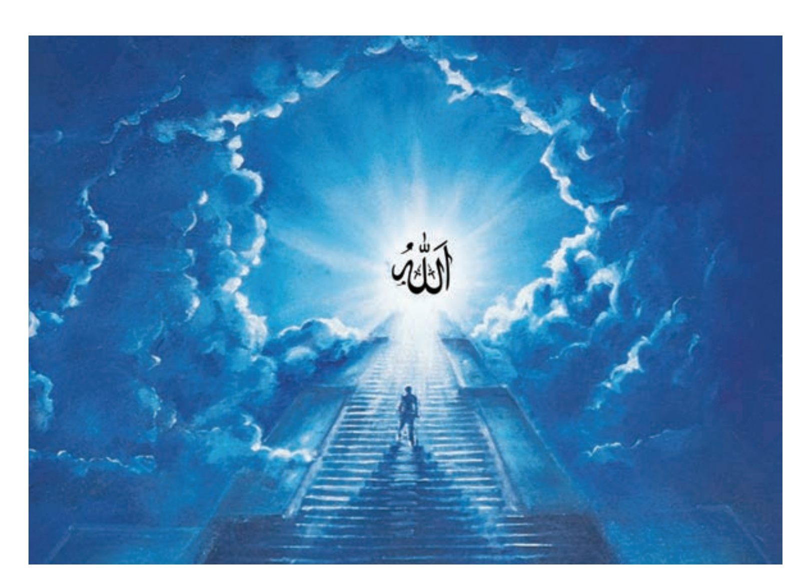
فالكينونـة البشـرية إذا مـا تضامَّـت على نفسها، وجمَّعت أجزاءها ووازنت بيـن متطلبـات كل جـزء منهـا، صارت وحـدة واحـدة، وغـدت جـزءًا مماثلاً للتـوازن الكامن فـي الوجود، ووجدت مكانها في الإيقاع السـرمدي بين الطاقة المنطلقـة مـن روح العالـم، والطاقـة المنطلقـة مـن روح الإنسـان، فتتحـول عندئـذ ذات الإنسـان إلـى عالَـم مـن الإشـعاع، يضـيء كل جانـب معتم من الفكر والحياة.

ففي مقدمة كتـاب "المثنوي العربي النـوري" يلمـح "النورسـي" إلى أسـس فهمه لعالَم الإنسـان الداخلـي، مـن حيث كونـه مزيجًا من العقـل المفكر والروح الباعـث للحياة فـي موات الأفكار. فما من إبداع إنسـاني إلا وهـو نتاج توافقـي بين العقل والروح، فالـروح هي محاريب العقول تتطهر فيها وتتصفّى، ثم تتسـامى إلى جوهر الأشـياء وحقائـق المعانـي ولبـاب الأفـكار. وبهذا الفهم اسـتطاع أن يحيط بالأبعاد الإيمانية التي أشـار إليها القرآن وسـعى لتربية العقول والأفهام بمضامينها.

لقد رأى "النورسي" أن من واجبه الديني أن يعرِّف الإنسان بنفسـه كما هي، وألا يحجـب عنه هذه المعرفة ليكون مؤهلاً لقبـول حيـاة "ما فوق الحـواس" التي يراد للمؤمـن أن يتأهل لقبولها. وقد سعى جهده لنقله من الحالة الذهنية النمطية إلى ذهنيـة منبثقة من رؤى روحية عميقة الإدراك واسـعة الآفاق، ليجرب أشـكالاً جديدة من الوجود لم يسـبق أن تعرَّف عليها من قبل.

ولا نكون مغالين إذا قلنا: إن "النورسـي" أوشك أن يصل إلـى نهايـة الإصـلاح في الحيـاة العقليـة والروحية للإنسـان المسـلم، وذلك بإنقاذه من الانكسـارات النفسـية التي خلفها فيه تضاعف شعوره بالانهزام الحضاري أمام تحديات العصر الحافـل بكـم هائل من الإنجازات في شـتى العلوم والفنون، حتى خشـي أن يكـون العالم اليـوم غير قادر على اسـتيعاب متطلبات المسـلم الروحية، واستسـاغة أشـواقه "الماورائية"،

لكونه محاصرًا من قبل حشود هائلة من ماديات الأرض... فهو اليوم عائم في بحران من الرعب الكابوسي الـذي يضيـق عليه الخناق، ويشـده أكثر فأكثر نحو المركز الميداني التعبوي لجنود الأرض، الذيـن لا يزالون يدقون الأسـافين بين الإنسـان وربـه... فبـات يحيـا دون انتمـاء جادّ إلـى عالمه الذي يعيشـه، أو العالم الآخر الذي يُدْفَعُ إليه دون رغبة منه. فالأعمال التي ينجزها، ينجزها كما تنجز الآلة الخرساء الصماء أعمالها بِحرفيـة مهنية من وراء ذهن متعب كليل وقلب هزيـل فاتـر، حتى لنـكاد نقطـع بغيـاب الروح الخلاّق فيما يأتيه من أفعال، ولو لم يكن شـيء مـا يعمل عمل الروح في اسـتنهاض قـواه الفكرية، لعقم ولم يأتِ بشيء جديد على هذه الأرض.



إن إطـلاق الكينونـة البشـرية من قيود مراسـيم النمطيات الفكريـة والنفسـيه المدونة في دفاتر العالـم، باعتبارها الهوية التـي يُرْجَعُ إليها عندمـا يراد تعريف الإنسـان وكتابة الوصفة الدوائيـة لأمراضه المسـتعصية أقـول: إن إنقاذ هـذه الكينونة مـن النظرة الضيقـة التي يُنظَر إلى الإنسـان من خلالها، عمل من أجل أعمال الدراسـات الفكرية الاستيعابية والاستقصائية لرسـائل النور. فقد أنذرت هذه الرسـائل ونبّهت إلى ضرورة إجراء تغييرات مهمة وجريئة في المفاهيم والمقررات المتعلقة بالخارطة الوجدانية والفكرية للإنسـان، وذلك بإعادة التوازن الحميمـي بين عوالم الإنسـان فـي مختلف لطائفـه ونزوعاته في الداخل والخارج، وإعادة الاهتمام بالكل الإنساني الكلي وعـدم الاقتصار على الجزء الجزئي منها كما يعبّر النورسـي. فرسـائل النور إنما هي قوة من قـوى الفكر الواعي، وقوة من قـوى الإدراك الروحـي العالـي، وهـي نجوم تتألق في سـماء ملكـوت عقل الإنسـان وروحـه، مثيرة بذلك الشـوق والتوق إلـى جمالية الحقائق، وشـاعرية الوجود، وشـفافية الأشـياء، وروحانية المكان والزمان، وعلو الإنسـان واستشـرافاته على جلال الأزل والأبد.

وأكثـر إيجـازًا وتلخيصًا فهي -أي رسـائل النـور- طريق معبـدة لمن يسـعى إلى مسـايرة الفكر فـي تفجراتـه الذهنية، ومسـايرة "الـروح" فـي وثباتـه اللانهائية، وهي مرجع واسـع وخصـب للنفـس الإنسـانية عندمـا ينتابهـا شـعور بالضيـاع والانكسـار أمام أعاصير الزمن، وطغيان الأحاسـيس وضمور المشـاعر، كما أنها تشعرك بقداسة الصنعة الإلهية في العوالم والأكـوان، وتؤكد على أن الإنسـان مخلـوق للبقاء لا للزوال والفنـاء، وأن الـذات الفرديـة وإن كانـت صغيـرة في رحاب الوجـود، غيـر أنهـا تحتـوي علـى عوالم أوسـع وأرحب من عوالـم الأرض والسماء تحيط بمشيئاتنا وأفكارنا، وتقودنا إلى مصائرنا إن خيرًا فخير، وإنْ شرًا فشر.

إن "الكينونـة البشـرية" بكافـة أبعادهـا المشـحونة بالفكر الروحانـي الذي اعتمده "النورسـي" في تأليفه لرسـائل النور، هذا الفكر مرشـح اليوم أكثر من أي فكر آخر لتأصيل "عقيدة الإيمـان" والمحافظـة على ركائـزه في بنية النفـس والضمير، وإمداد الذهن بالثقافة الإيمانية التي هي نتاج تجربة ومشاهدة بلغـت درجة اليقيـن الذي لا يقين بعده كمـا يقول. فهو -أي النورسـي- لا يخدعنا، لأنه لم يكتب إلا ما شـاهد وجرّب... فقد قرأ كتاب الكون والحياة بألسـنة الأرض، ولمس السماء، وغـاص فـي فجاج الفكـر ودخائل الضمير، فأتـى بالذي أتى عفوًا، بلا روية ولا اصطناع.

لقد عاش روح العصر، وأدرك أنه عصر يصدف عن علوم النظـر وتأمـلات العزلـة، بل هو عصـر يقبل بشـدة على علم المزاولـة والبنـاء، إنـه جمع كل ما أمدته بـه الحكمة في قلمه ثم نثرها في رسـائله، فأشـعل النفس، وحمَّـس الروح، وأثار العاطفـة، ووسّـع آفاق الخيال، ورسـخ معالم العقـل القدير، وأمانة الفكر والتفكير. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

د. محمد باباعمي*

ولكن..
كلُّنا في الهم شوقُ



هـي قصيدة عصماء لأمير الشعراء أحمد شوقي، لكأنه ترنّم بها اليومَ، بقلب مَكلوم مَحزون على حال عالمنا الإسلامي إجمالاً، وعلى حال دمشق تخصيصًا، معانيها لا تزال متلألئةً لا تبهت... قال في مطلعها لا فضَّ فوه:

سلام من صبا "بَرَدى" أرقُّ*** ودمعٌ لا يُكفْكَف يا دمشقُ
ومعذرة اليراع والقوافي*** جلالُ الرَّزْءِ عن وصف يَدِقُّ

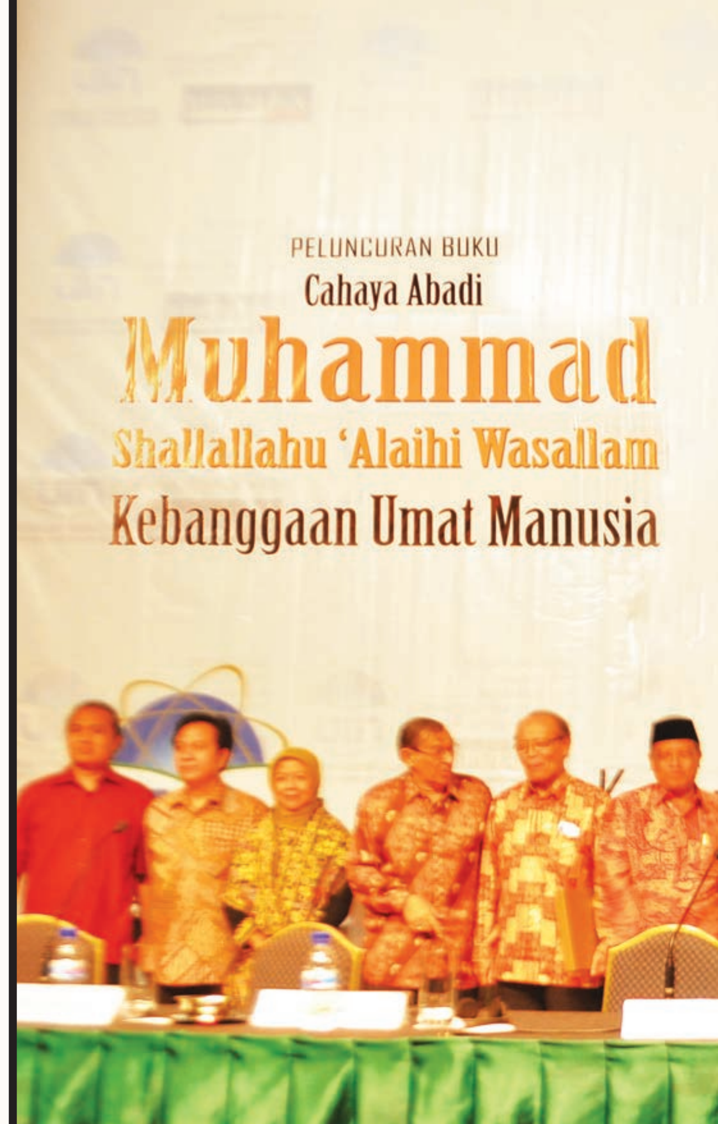
نعَم، يموت الرجل فيخلُد المعنى دفَّاقًا... ويفنى الجسم فيبقى الروح خفَّاقًا... أمَّا الكلمة الصادقة التي بُذرت في تربة الحق، وأينعت في عالم الخلق... أمّا هذه الكلمة، فأصدق وصف لها قولُ رب البيان، ومعلّم القرآن، جل جلاله وتعالى حُكمه: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾(إبراهيم:٢٥)؛ إنها لِطيبها تعانق عالَم الملائكة برفقٍ، فتسقي العقول الفطِنة كلَّ آن، وتُحيي القلوب المحبة آنًا بعد آن.

ولقد أبدع شاعرنا ثانيةً حين قال، في ذات القصيدة الفيحاء، وهو يحرّك منّا المواجد، ويُلهِب فينا الأشواق:

نصحتُ ونحن مختلفون دارًا*** ولكنْ، كلُّنا في الهمّ شرقُ
ويجمعنا إذا اختلفت بلادٌ*** بيانٌ غيرُ مختلفٍ ونُطْقُ

غير أني أستميح فصيحَ العرب شوقي عذرًا، إذا تجرَّأتُ عليه؛ لا لأخطِّئه، فذلك مما لا ينبغي لمثلي أن يدّعيه على مثله، لكن لأبشِّره أنّ نصر الله تعالى بدَا حاجبُه في الأفق؛[1] إنه قاب قوسين أو أدنى، لأجل ذلك تشجَّعتُ فحوَّرت في رائعته معنيين، وله الفضل سابقًا ولاحقًا:

أولاهما أنّ دلالة "الهمّ" قد نمت وتطوَّرت، فبعد أن كانت سلبيةً قاتمةً: سلبيتُها من سلبية الفرد المسلم يومئذ، وقتامتُها من قتامة حال الأمَّة حينئذ؛ ولقد كنّا أوان نسج القصيدة[2]



نئنُّ تحت كلكل ضعفنا وهواننا، ونرزح تحت نير الاستعمار؛ يذبِّح أبناءنا، ويستحيي نساءنا... أمَّا اليوم فيصدق أن نقول: إننا "نرى رفرفة خمائل القضيةِ في كل صوب وناحية منذ الآن بوفاء كوفاء الفجر، وعلى مرغمة كل عائق، وبفضل الذين حفّزوا الخارطة الروحية للوطن بخفقات قلوبهم، ولوّنوها وسقوها بدموعهم... ولئن جاز العديد من خداع الفجر الكاذب، فإنَّ شهادة أصدق الشهود على شروق الشمس قريبًا هو الفجر الصادق في الأفق نفسه".(٣) ولذا تفتَّح معنى "الهمّ" على عالَمٍ أكثر رحابة وإيجابية وسعة، ليعني "التوتُّر الروحيَّ"، و"الشدَه المعنويَّ"، و"الألم من أجل الأمَّة"... مِن هنا جاز لنا أن نعدِّل في البيت مُنشدين:

"نصحتُ ونحن مختلفون دارًا***ولكن، كلُّنا في الهمِّ شوقُ"

إنه لشوقٌ لغدٍ متفتّحِ الأكمام، وإنه لَتوقٌ لمستقبل باسم الثغر؛ ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي﴾(يونس:٥٣)، ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾(الذاريات:٢٣).

ثانيهما أنّ الذي جمعنا اليوم ونحن نرفرف في سماء الشرق، هو "الله تعالى" جلَّ شانُه، و"كتابه الكريم" سما بيانُه، ثم "رسوله الحليم" شرح الله صدره، ووضع وزره، ورفع ذكره... فلم تجمعنا -إذن- اللغةُ، ولا النطق، ولا اللسان، ولا العرق... إلا أن يعني الشاعر "بالبيان والنطق غيرِ المختلف" كلامَ الله المبين، وكتابَه المتين؛ فهنا فقط، نوافقه ونذهبُ مذهبه، ونردِّد على إثره:

"ويجمعنا إذا اختلفت بلادٌ***بيانٌ غيرُ مختلفٍ ونُطْقُ".

سمعتُ صوتًا خافتًا، من هنالك، يهمس في أذني قائلاً:

- إن يكن هذا إجمالاً، فأين التفصيل؟ وإن يك اختصارًا، فأين الإطناب؟ وإن قصدت الإلغاز، فأين مفتاح الشفرة، ورمز الأحجية؟

قلتُ: نعَم صدقتَ، لكن رويدًا لا تستعجل ولا تختزل، واسمع قول ربنا العظيم لنبيّه موسى الكليم: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾(طه:٨٣).

قال الذكيُّ الفطِن: لكن يا هذا، تنبَّه إلى جواب الرسول الملهَم، وقد حماه ربُّه بكرمه ورعاه على عينه وعلَّمه من علمه؟

قلت: ماذا تعني؟

قال: ليست كلُّ العجلة ندامةً، وإنما العجلة إذا كانت ابتغاء رضوان الله، فهي عنده مبرَّة ومكرُمة. ألم تسمع جواب سيدنا موسى الحكيم: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾(طه:٨٤). كذلك أنا، عجِلت إلى سماع الخبر، ابتغاءً لرضا ربي، وأملاً في فرج يحلُّ عاجلاً على أمتي، وترقُّبًا للفجر الجديد والعهد الوليد! فهل يقنعك هذا يا هذا؟

قلت: نعم، أصبتَ... ذلك المبتدأ إليك الخبر، وتلك المقدّمة دونك المتن، وهذا الشاطئ فلنغص في البحر متوكّلين على الله محتسبين:

بيانُ ذلك أنَّا سمعنا من أقصى الشرق مناديًا ينادي أنْ توافدوا لإحياء ذكرى "النور الخالد، مفخرة الإنسانية، محمد عليه أفضل الصلاة والسلام"... وقد يسَّر الله تعالى على يد عبده المنيب(٤) تأليف هذا السفر الفريد، ولقد تُرجم من قبلُ إلى خمسٍ وثلاثين لغة، وها اليوم يفتح الله تعالى بترجمته إلى اللغة الأندونيسية، لغةِ أكثر البلاد الإسلامية مددًا وعددًا.

نعَم، من هنالك، في الطرف الشرقي لمحور "طنجة-جاكارتا"، أو إن شئتَ فقل لخطِّ "مراكش-جاوا"؛(٥) من هنالك، من جاوا، وجاكارتا، وبانودنغ، وسومطرة... جاءت دعوةٌ كريمةٌ، تفضَّل بها مأجورًا كرسيُّ "الأستاذ فتح الله كولن" في "الجامعة الإسلامية الوطنية"، فاستجاب ثلَّةٌ من المثقّفين والمفكرين، من المغرب والمشرق، وأسْرَوْا ليلاً وجهة آخرِ نقطة من جغرافية الشرق. فيسَّر الله لهم أمر السفر، ثم فتح لهم من رحمته، كيف لا وقد استجابوا لأمر ربهم الحكيم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا﴾(الأنعام:١١)، ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾(الملك:١٥).

وهنالك، في جاكارتا، عاصمة الجزر الأندونيسية، هنالك استُقبل الوفد بحفاوة يعجز اللسان عن وصفها؛ بورودٍ في المطار، ثم بإقامةٍ في منزل أنعِم به من منزل، وتوالت الزيارات إلى الشخصيات البارزة، والوجوه الطيبة، والعائلات السخيَّة، والمؤسَّسات البديعة... في هذه البلاد العامرة الطاهرة، التي نزل بها "المهاجرون" من شباب "الخدمة" أوائل التسعينيات من القرن الماضي، فبذروا فيها "المحبَّة" و"التسامح" ومعنى "أن تعيش للآخرين"، ودفنوا لأجل ذلكم "أنانياتهم" في تراب الخمول، موقِنين أنَّ "ما نبُت مما لم يُدفَن لا يتمُّ نتاجُه".

ولقد قال أحد وجوه البلد في كلمة بديعة قُبيل وجبة عشاءٍ دعانا إليها عن طيب خاطر: "إن فتح الله قد أعاد الاعتبار إلى الأخلاق الحميدة، في منظومة الأوامر والقيم الشرعية، هذه الأخلاقُ التي تشغل جلَّ نصوص الشارع الحكيم، ولكنها -للأسف- تكاد تغيب من واقع المسلمين اليوم"، ثم أردف قائلاً: "لم نعرف الخدمة إلا من خلال أخلاق شبابها، التي تذكِّرنا بأخلاق الصحابة، عليهم شآبيب الرحمة، ويليق بنا أن نعترف أنّ هؤلاء هم الصحابة الجدد، صحابةُ هذا العصر، بحول الله تعالى، ولا نزكّي على الله أحدًا".

ويذكر التاريخ أن "أهل حضرموت-اليمن" نشروا الإسلام في هذه الربوع اليافعة، ولا يزال لهم هنا ذكر وأثر ومحمدة، بل وعِرقٌ حي نابض، ممن أصله من اليمن السعيد، يمنِ الحكمة والفخر والبطولة... أمَّا اليوم، فيسجِّل التاريخ بصوتٍ جهُورٍ صادقٍ، أنّ "أهل الخدمة" أحيَوا لحمة الدين من جديد، وأزالوا هواجس الفُرقة، وذكَّروا العالمين أنّ "الإسلام دين أمن وأمان"، وأنّ الخيرَ كلَّه في الإقبال عليه، وأنّ الشر جميعَه في الإعراض عنه. ألم يقل المرشد الخرّيت: "رجاؤنا الوطيد المنتظَر أن نشهد قريبًا -إن لم ننقض عهد الوفاء مع الله تعالى- معاني سورة النصر بعظمتها وهيبتها كرّة أخرى... وأن ترفرف رايات الإيمان والأمل والأمن فالاطمئنان والحبور، في ظلّ الإسلام مَرّة أخرى... وأن تتعرف البشرية في الأرض كلّها على نظامٍ عالمي جديدٍ فوق ما تتخيَّل، وأن يستفيد كلُّ إنسان، بقدر ما تسع فطرته وأفق فكره من تلك النسائم المنعشة".(٦)

ولقد شهدنا -عيانًا ويقينًا- مدارس شامخة عتيدة، بلغت الذروة جودةً



أ.د. عقيل سراج، رئيس نهضة العلماء/أندونيسيا.

أ.د. نصر الدين عمر، نائب وزير شؤون الأديان/أندونيسيا.

د. فؤاد البنا/اليمن (على اليسار).

د. محمد باباعمي/الجزائر.

نوزاد صواش، المشرف العام على مجلة حراء/تركيا.

وإتقانًا، أغلبها من سخاء أهل البلد الذين آمنوا بدرب العلم مَخرجًا وفرجًا، ثم زرنا دُورًا للطلبة وأخرى للطالبات، مفتوحةً على العالم مبنى، ومتصلة بالسماء معنى، يصدق أن يُتلى عند بابها دعاءً وابتهالاً قوله تعالى: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴾(الكهف:١٦).

وإن للتجارة والصناعة هنا لمكانة أيُّ مكانة، غير أنها ليست لكنز الأموال الطائلة، ثم تبذيرُها في الملاهي واللوثات، أو إسرافها في الرِّءْيَا أو في الأثاث، وإنما هي للسخاء سخًّا، استجابةً للحق ونفعًا للخلق، وهي للإنفاق في سبيل الخير والبرِّ، والبذل في طريق العلم النافع والعمل الصالح... ألم يقل نبينا المكرَّم، فداه أمِّي وأبي: "يا عمرو، نعم المالُ الصالح للرجل الصالح" (رواه البخاري).

ولقد مرَّت الأيام كلمح البصر إلى أن جاء موعد الملتقى، فجمع المئات من المحبِّين المَشوقين المَشوفين، كلُّهم جاء ليشنِّف أسماعه بذكر الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، في هذه البلاد التي تستمرُّ الاحتفالات فيها بمولد البشير شهورًا وشهورًا.

كانت البداية بوجبةٍ سخيةٍ مع عشاء طيب المذاق، تحفُّه الملائكة، حيث يتعارف الناس من مختلف الأمصار، بوجوهٍ مسفرة وأخرى ضاحكة وثالثة مستبشرة... وإنك لن تصادف -في هذا المقام الإيماني المحمدي- وجهًا عبوسًا قمطريرًا، ولا وجوها عليها غبرة ترهقها قترة... وإنما هي الرحمات حين تنزَّل من رب رحيم ودود كريم.

فشنَّف الأسماع مجوِّد من أهل البلد كهلٌ، غير أن صوته لا يزال غضًّا طريًّا، وظني أن سيدنا الحبيب المصطفي لو سمعه، لقال له ما قال للصحابي الجليل أبي موسى الأشعري عليه رضوان ربي: "لقد أوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود" (رواه مسلم)؛ ولقد اتفق العلماء الأفذاذ أن المزمار دلالةٌ على الصوت الحسن.

ثم انبرت فرقة "النور الخالد" للأناشيد والمديح بأصواتها الناعمة الشجية المليحة الصافية النغم، فقامت تردِّد بحنين وأنين، مدائح وأناشيد عن المجتبى الحبيب، بلغات أربع، تتراوح بينها في سلاسة، تنسيك القيود والحدود، وتذكِّرك أن اللغات جميعها آية من آيات الله تعالى، قبحها من قبح محتواها وجمالها من جمال فحواها.

وعلى القاعة تنزَّلت غمامةٌ، فطارت القلوب طربًا واعتصارًا، لِشاعرة تُخاطب رسول الأنام بلسان قومها، فتبكي القلوب الضارعة وتدميها، وتذرُ الأفواه فاغرة والآذان مُطرِقة، وهي تنادي بأعلى صوتها: "يا رسول الله... يا رسول الله... يا رسول الله".

وكان للضيوف والأعيان كلماتٌ للترحيب، ونصائحُ كالجواهر تتنزَّل على الجموع وضيئةً ناصحةً ناصعةً... وما ذلك إلا أنها نبتت في أرض الشوق، وسُقيت بماء العشق، ونمت تحت سماء الوصل، ثم أثمرت خيرات وبركات، وغمرت الأرواح ظلاً ظليلاً، وأحلَّت الوجوه نورًا وضيئًا.

وأخيرًا، جاء بيت القصيد، عَبرات وعبارات في محاضرات وانطباعات



د. علي أونسال/تركيا.



الشاعرة حاج نينو واريسمان/أندونيسيا.



د. محمد جكيب/المغرب.


مصطفى أوزجان، مستشار مجلة حراء/تركيا.





حول "النور الخالد"، ولقد زالت جميع أسماء الخلائق وقتها، إلا اسمٌ واحدٌ فريدٌ هو اسم سيد الثقلين محمد ﷺ. ولقد صدق الله العظيم القائل وهو يبشر نبيه وينذر شانئه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۞ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۞ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾(الشرح:١-٤)، ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۞ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾(الكوثر:١-٣).

وحتى اسم "فتح الله" قد ذاب في بوتقة الحبيب القريب. وكُلّي يقينٌ أن رجاء الأستاذ قد تحقّق، وهو الذي يكره الأضواء، ويعشق الظل، ويتفنَّن في "تصفير الذات"، وفي درء المدح والمحمدة... فيختفي عن الأنظار، وينهى عن نسبة أيّ عمل له، ويبكي لربه ليل نهار: "يا ربِّ، لا تُرني ربيع عملي، وانفع به غيري، ولا تجعل حظّي من عملي في دنياي، وادَّخِر لي الأجرَ ليوم لُقياك... آمين يا رب العالمين".

وما أروع المناجاة التي يتفطر على إثرها القلب المحبُّ للمصطفى، وتزول في ساحها الحروف والكلمات والأصوات، لتترك الصمت أبلغ معبّر، والشده أقوى برهانٍ، والهمَّ أصدق بيانٍ... إنها لمناجاة عاشق ولهان متيم، لم يخطب يد "ليلى" يومًا ولا رجاء له فيها، وإنما ليلاه "أمته ودينه". وهو لذلك يناشد "سلطان القلوب" ﷺ بقوله: "يا أيها النبي المبارك المحلق في الأعالي أبدًا... أنت روحُ الروح لنا، ورسالتُك دواء لأدوائنا المزمنة، نرجوك أن تأتينا كرة أخرى، فلا تدعْنا بلا روح... نرجوك أن تتكلم مرة أخرى، فلا تَدَع عبيدك في مضض الهموم... في طريق مسيرتنا كثير من المتربصين بنا الداوئر، وعظائمُ من نيران الفتن تَغشي آفاقنا بدخانها... ونحن نكدح في السير مهما كان، نسعى مرة، ونكبو أخرى!.. فاجعل معيتك علامة لنا في طرق سيرنا، وأَشعِرْ قلوبنا بطمأنينة دلالتك وهدايتك إلى سواء السبيل... وإذا لم تنادنا من فوق قمم القلوب، فلم نسمع نحن -بدورنا- مِن آفاق أرواحنا أنفاسَك المُحْيِيَة، فسنصفرُّ كالأوراق التي يلتهمها الخريف، ونصير سببًا لهبوب أنسام الحزن في أفقك. وكم كنا نتمنى ألا نتطاير أشتاتًا مع الخريف، وألا نكون وسيلةَ حزن يطرأ عليك... لكن هيهات هيهات".(٧) ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

الهوامش

(١) إشارة إلى قصيدة "بدا حاجب الأفق"، للأستاذ فتح الله كولن، مطلعها: أوشك السفر على الانتهاء***وبدا حاجب الأفُق***ذاك الربيع الذي كان مخضرًّا بكل أشكاله***أصبح اليومَ مصفرًّا.

(٢) عاش أحمد شوقي أحلك أيام المسلمين، وعاين سقوط الخلافة، وتكالُب الاستعمار الغربي على البلاد المسلمة، وضعف المسلمين وهوانهم وخورهم حينها، وذلك ما بين ١٨٦٨-١٩٣٢م.

(٣) القضية الكبرى لشعبنا، للأستاذ فتح الله كولن، وهو مقال نشر في كتاب "ونحن نقيم صرح الروح"، ص:١٠٥.

(٤) "النور الخالد"، للأستاذ فتح الله كولن، وقد طُبع طبعة راقية بديعة، وبيع منه في مولد هذه السنة فقط، باللغة التركية، حوالي مليوني نسخة، إضافة إلى ملايين النسخ التي بيعت من قبلُ، باللغة الأمّ، وبشتى اللغات التي ترجم إليها، علمًا بأن الهدف هو تبليغ صوت الرسول ﷺ إلى جميع سكان العالم بجميع لغات البشر.

(٥) محور "طانجا-جاكارتا" بتعبير مالك بن نبي، ومحور "مراكش-جاوا" بتعبير فتح الله كولن.

(٦) دنيا في رحم الولادة، للأستاذ فتح الله كولن، وهو مقال نشر في كتاب "ونحن نقيم صرح الروح"، ص:١٢.

(٧) وخاتم المنبئين عن الغيب، للأستاذ فتح الله كولن، وهو مقال نشر في كتاب "ونحن نبني حضارتنا"، ص:١٤٤.

د. إبراهيم عبد الباقي أبوعيانة*

الإنسان والنبات



سيظل القرآن الكريم معجزة الله الخالدة، تحاج العقل وتتحداه إلى الأبد. فالقرآن معجزة العلم والمعرفة. ومن الإشارات القرآنية قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا﴾(نوح:١٧)، وفي ذلك إشارة تُلمح إلى درجة التشابه بين الإنسان والنبات وتوحد النشأة ووحدانية الخالق.

والتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات، تعبير عجيب موح، وهو يكرَّر في القرآن الكريم بصور شتى كقوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾(الأعراف:٥٨)، وكذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾(النجم:٣٢). والإشارة إلى نشأة الناس كنشأة النبات إشارة تستدعي التأمل، فهي توحي بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض. وإن نشأة الإنسان من الأرض، كنشأة النبات من عناصرها الأولية يتكون، ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو، فهو نبات من نباتها، وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة. فكلاهما نتاج الأرض وكلاهما يرضع من هذه الأم،[1] وبعد الموت يعود كلاهما إلى الأرض ترابًا.

أصلٌ واحد

إذا فتق الجنين البذرة وفسق عنها -عند الإنبات- مكوّنًا جُذيرًا صغيرًا معتمدًا في غذائه على مدخر أمه البذرة، متجهًا إلى الأرض حيثُ يستطيل ويشتد عوده فيثبت فيها ويتغذى منها، شأنه في ذلك شأن الجنين في الإنسان والحيوان الذي يتغذى من أمه في بطنها ثم من لبنها حتى فصاله... وينشر الجذر شعيراته في التربة يبتغي من فضل الله من ماء وعناصر غذائية ينتقيها بعناية فائقة فيما يعرف بـ"النفاذية الاختيارية" عافًا عما لا يحتاجه مقتصدًا فيما يرغب فيه... ثم تأخذ هذه المواد مسارها لأعلى لتصل إلى كل خلايا النبات، ضاربة أعظم الأمثلة لعظيم قدرة الله ﷻ، وضآلة قدرات الإنسان الذي يعجز عن صُنع مثل هذا مهما أُوتي من علم وتقنية.

النباتات المفترسة

لا حياة للإنسان والحيوان بدون النبات، فالمملكة الحيوانية جُبلت على التطفل على النبات، لكن هل كل النباتات -التي يقدر أعدادها بنصف مليون نوع- بهذا السمو والنبل والرفعة؟ كلا، بل إنها تضم العديد من النباتات ذات الممارسات العدائية الشرسة، مثل الإنسان! فمنها ما يهاجم شقيقة من النبات أو يعتدى على بعض الحيوانات أو الحشرات الضعيفة بأسلحتها الكيماوية؛ فالنبات أول منتج ومستخدِم للأسلحة الكيماوية. والغريب أن تلك الأنواع المفترسة تنتج غذاءها ذاتيًا كبني جلدتها، ولكن لديها أعضاء تحورت لتمكنها من اقتناص فرائسها التي تمدها بالنيتروجين الذي تفتقر إليه التربة التي تقطنها. ويجب ألا نترك هذا المقام دون أن نسوق أمثلةً لنباتات مفترسة تشترك جميعها في آلية الافتراس، معتمدة في ذلك على إفرازها سائلاً حُلو المَذاق، جاذبًا للضحية برائحته الذكية، وما أن تصل الضحية إلى الشرك، يُقفل عليها الفخ وتهوى في بركة من الأحماض الكاوية والأنزيمات المحللة، فتتحلل الضحية وتُمتص وتمر في عصارة النبات، هذا برغم اختلاف الأشكال والأسماء فمنها "نبات الديونيا" (Dionaea)، و"الدروسيرا" (Drosera) و"نبات الجرة" (Nepenthes Ventrata).

وإن كان الإنسان لا يخلو من الطفيلي، فعالم النبات يعُج بالمتطفلين والفُضوليين، مثل "نبات الهدَّال" (Mistletoe) أو الدبق ذي الأوراق الخضراء، التي تمكنه من صُنع غذائه بنفسه، إلا أنه يتطفل على النباتات التي يتسلق عليها، فيُولج ممصاته داخل الأنابيب حاملة الغذاء إلى أجزاء النبات، فيسلُب منه الماء والغذاء مما يُلحق به الذبول أو يقضي عليه. وهناك الهالوك المتطفل على نباتات العائلة البقولية الذي إذا تمكن منها، سبّب خسائر فادحة.

نبات يَدمع

النبات كالإنسان يُولد ويموت ويفرح ويحزن، بل قد يُصاب بصدمات عصبية! هذا ما أكدته النتائج المسجَّلة بأدق الأجهزة على نباتاتٍ وُضعت في مَركبات الفضاء، حيث عانت من الاضطراب والخوف، وما لبث أن هبطت على الأرض حتى عاد إليها الهدوء والاطمئنان والسكينه، وانقشع عنها التوتر والقلق.(٢) وعلى النقيض من ذلك فهي تتمايل راقصة منتشية فرحًا بالماء بعد العطش. وكما يُلطف العرق درجة حرارة الإنسان، فالنباتات تملك أنظمة تكييف تُلطف من حرارتها بتبخير الماء عن طريق الورقة فيما يُعرف بـ"النتح" بتقنية معجزة، حيث يُحاط الثغر بخليتين حارستين تتحكمان



في فتح الثغر وإغلاقه حسب حالة الجو وحاجة النبات للماء. وقد يزيد النتح في بعض النباتات فيتجمع بخار الماء في قطرات يُخيل للناظر أنها تبكي، ويبدو هذا جليًّا واضحًا في نبات القلقاس الهندي الذي يَدمع في الليلة الواحدة حوالي (١٠٠سم مكعب)، من الماء المُحمّل بالأملاح والأحماض الأمينية وغيرها... ويتم هذا في قنوات تشبه القنوات الدمعية في الإنسان. والنبات يتنفس كالإنسان؛ فيتنفس الأكسجين، ويَنفث ثاني أكسيد الكربون على مدار حياته، ولم تُعرف هذه الحقيقة إلا في العام (١٧٧٩م).

النبات معمل متحرك

للنبات ساعته البيولوجية التي تضبط إيقاع حياته من نوم ويقظة، فتنبهه بموعد شروق الشمس ليُهيئ نفسه ويشمر عن ساعده، ليقوم بتشغيل أكبر المصانع الحيوية على وجه الأرض، ليُنتج بلايين الأطنان من الغذاء فيما يعرف بـ"البناء الضوئي" حيث تُحور بروتين يسمى "D1" مهم جدًّا في عملية البناء الضوئي. وإذا اشتدت الحرارة، تُنبه النبات لإنتاج فلافونويدات التي تعمل كسرابيل تقي النبات شر هذا الحر. وقد يَخلد النبات للنوم، وأهم أجزاء النبات التي يظهر عليها النوم، هي الأزهار التي تستسلم للنوم ليلاً أو نهارًا.

وإن كان الصوت عند الإنسان وسيلة اتصال وتبادل أفكار، فالصوت عند النبات ما خُلق إلا لمُناجاة الواحد الأحد وتسبيحه ليل نهار... ففي تجربة باهرة عالية التقنية تمت في جامعة "باريس ٧" بمختبر كهروفيزيولوجيا الأغشية، ثبت أن وجود بعض المذابات مثل النترات، مكّن الباحثين من ملاحظة استقطاب زائد عند الخلايا، وخاصةً عندما تمتص الخلايا النباتية أيون النترات أو الكلورور. وهذا الاستقطاب الزائد والمُتغير بتغير المذابات، يمثّل الاستقطاب العام للخلايا النباتية، ويمثل الحالة الفسيولوجية التي تكون عليها الخلايا. هذا الاستقطاب يُؤكد فرق الجهد بين داخل الخلايا والوسط الخارجي. هذه العمليات مكّنت من قياس كمي وكيفي للوسط الكهربي عند الخلايا والبروتوبلازما، وكان من الضروري ربط كشّاف الذبذبات الناتجة بمُضخم جِدُّ دقيق، لتحويل إشارات الذبذبات إلى أصوات مُتزامنة مع الجهد الكهربي المُقاس بكشاف الذبذبات.

خلاصة القول، وُجد أنه كلما زاد أيون النترات عند الخلية سُجل استقطاب زائد، وكلما انتشرت كمية زائدة لأيون النترات داخِل الخلية كلما كان الاستقطاب الزائد قويًّا، مما يُؤدي إلى ارتفاع همسات الصوت عند الخلية، مما سجّل صوتًا يُشبه ذلك الصوت الذي يُطلقه الحوت في وسطه المائي. وكما هو معلوم أن النترات بقدر نفعها للنبات يكون جِدُّ مضر عندما تزيد الكمية المنتشرة منها بداخل الخلايا، مما يجعل الخلايا في حالة مغايرة، ويترتب عنه همسات أكبر من سابقتها،[٣] وصدق الحق عندما قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(الإسراء:٤٤). وكما يسجد الإنسان والنجم وسائر المخلوقات لله، يسجد النبات: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾(الرحمن:٦)، وهذا ما أكدته القياسات المأخوذة على أوراق النباتات والأشجار؛ فلقد ثبت أنها تأخذ اتجاهًا مُعينًا على مدار اليوم وكأنها تأخذ وضع السجود.

معجزة التشابه

الخلية هي الوحدة التركيبية والوظيفية الأساسية للحياة، وتعتبر الخلية كائنًا حيًّا كاملاً في الكائنات "وحيدة الخلية"، بينما في الكائنات الراقية "عديدة الخلايا" فإنه يوجد تجمع لعدد هائل من الخلايا المختلفة، والتي تُنظم بكل دقة لتكون نسيجًا، والأنسجة تكون بدورها عضوًا، والأعضاء تتحد لتكون كائنًا حيًّا، سواء كان نباتًا أو حيوانًا أو إنسانًا.

وبالرغم من تعدد النواتج التخصصية والوظيفية للخلايا في الكائنات المختلفة، إلا أن الخلايا متشابهة إلى حد كبير في احتوائها على عديد من العضيوات التي تتم فيها التفاعلات الكيماوية، كذلك تتشابه في "الأغشية البلازمية" و"الأحماض النووية" (DNA&RNA)، والتي تعمل كمكونات أساسية في ميكانيكية نقل المعلومات الوراثية ونقل الصفات من جيل لآخر في الكائنات، سواء كان إنسانًا أو حيوانًا أو نباتًا. هذه الأحماض النووية جوهرية الوظيفة توجد في جزء متناهي الصغر، قطره (٥-١٠ ميكرون)، منغمس في السائل الخلوي لكل الكائنات يسمى "النواة".

والمعجز أن (DNA) أو "الحمض النووي الديوكسي ريبوز"، له تركيب واحد في الإنسان والكائنات الراقية (Higher Organisms) ومنها بالطبع النبات. ويتكون (DNA) من شريطين ملتفين حول بعضهما يشبها السُلّم، والذي تتكون جوانبه من


نبات القلقاس الهندي

جزيئات السكر والفوسفات، أما درجاته فتتكون من مجموعة من القواعد النيتروجينية؛ معنى ذلك أن كل شريط، يتكون من وحدات متكررة تسمى "النُكليوتيدات" (Nucleotides)، التي تتكون كل منها من جزيء سكر وجزيء فوسفات وقاعدة نيتروجينية. وهناك أربع قواعد نيتروجينية مختلفة وهي "الأدنين" و"الثيمين" و"السيتوزين" و"الجوانين"، وتَتابع هذه القواعد على "شريط الحمض النووي" (DNA) هو الذي يُحدد التعليمات الوراثية لخلق الكائنات الحية المختلفة.[٤] وكذلك فإن اختلاف تتابعها داخل كل نوع، يخلق التباين بين أفراد النوع الواحد.

ولعل من أبرز مناط التشابه بين الإنسان والنبات، هو تركيب اليخضور في النبات واليحمور في الإنسان؛ فالهيموجلوبين الموجود في دم الإنسان والحيوان، واليخضور -وهو الصبغة الأساسيه في النبات- من أهم المركبات الحيوية التي تغذي الحياة على سطح الأرض. يتكون الهيموجلوبين من جزأين، أحدهما يحتوي على بروتين خاص وبه عنصر الكبريت، ويسمى "جلوبين"، إذ يكون متحدًا مع الجزء الآخر وهو صبغة الهيم الحمراء، ويوجد الهيموجلوبين في خلايا الدم الحمراء، وعند مروره في الشعيرات الدموية بالرئة، يحصل على الأكسجين مكونًا مركبًا جديدًا يسري في الدورة الدموية، وعندما يصل إلى أنسجة الجسم يمُدها بالأكسجين. كما يتحد مع ثاني أكسيد الكربون الموجود في هذه الأنسجة مكونًا مركبًا جديدًا يسري إلى الرئتين مرة أخرى، ليخلص الجسم من ثاني أكسيد الكربون في عملية الزفير وهكذا... أي إنه معمل متحرك داخل الجهاز الدوري بقدرة الله.

أما اليخضور، فيقوم بوظيفة تحويل الطاقة الضوئية التي يحصل عليها النبات من الشمس، إلى طاقة كيمائية مخزنة في نواتج البناء الضوئي، وبلايين الأطنان من المركبات العضوية التي تتغذى عليها الكائنات التي تعيش على سطح الأرض. وهنا يوجد معمل دقيق أيضًا، يقوم على تبادل الأكسجين وثاني أكسيد الكربون، وتتجلى هنا معجزة التشابه الكبير بين التركيب الكيمائي لكل من صبغة "الهيم" وصبغة اليخضور؛ فكلاهما عبارة عن متراكب للمركب الحلقي المعروف باسم "بروفين"، والذي يتكون من أربع حلقات البيرول -حلقة خماسية غير متجانسة تحتوي على النيتروجين في أحد أركانها- متصلة ببعضها في شكل حلقة بواسطة أربع مجموعات من الميثين، مع بعض الفروق في نوعية المتراكب تناسب وظيفة كل منهما. فالهيم عبارة عن متراكب حديدوز، إذ يتمركز أيون الحديد الثنائي وسط حلقة البورفين، أما في حالة اليخضور فنجد الماغنسيوم بدلاً من الحديد.[٥]

ولعل هذا التشابه العجيب والمعجِز، هو ما دعا الكثير من العلماء للاعتقاد أن الكلوروفيل مادة بناء الهيموجلوبين لكل الأَكَلة من البشر والحيوانات، حيث وُجد أن للكلوروفيل تأثيرات بنائية للدم شبيهة بتأثيرات الحديد، مما يمكنه من علاج الأنيميا الحادة. ولما كانت عصارة النبات المحتوية على الكلوروفيل، تحتوي على أكسيجين سائل، مما يسمح لنقاء الذهن ووضوح التفكير، كما أنه يعمل كمانع طبيعي للأكسدة.

وفي النهاية، إن الله وحده هو الخالق البارئ المصور، وإن الكون لم يُخلق صدفة، بل خُلق بيد مُبدعة، والكون يعج بالكثير من آيات الله... وما علينا إلا أن نتأمل ونتفكر في بديع خلق الله ﷻ. ■

(*) باحث في معهد بحوث تكنولوجيا الأغذية، الجيزة / مصر.

الهوامش

[١] في ظلال القرآن، لسيد قطب، ج:٦، دار الشروق، مصر.

[٢] الله والعلم الحديث، لعبد الرزاق نوفل، ط:٣، دار الناشر العربي، ١٩٧٣.

[٣] همسات وأصوات الخلايا النباتية، لعبد المجيد بلعابد، مجلة الإعجاز العلمي، العدد:١٩.

[٤] هذا هو علم البيولوجيا، لإرنست ماير، ترجمة: د. عفيفي محمود عفيفي، سلسلة عالم المعرفة، العدد:٢٧٧، يناير ٢٠٠٢.

[٥] أوجه الشبه بين الإنسان والنبات، مجلة عالم الكيمياء، العدد:٤، ص:٥٦.

مرام البار*

تجليات الصبح

تحدث يا صبح واحك، عسى أن توقظ بضوء حديثك النور الهاجع في أرواحنا فنصحو. علّمنا الرحمة أيها الصبح، علّمنا، من شآبيب السحاب، علّمنا.. أوَليست أنامل شمسك الذهبية قد غزلت من أنفاس البحر اللاهث إكليل ياسمينات بيضاء يسبحْن في الفضاء، محمّلات بإكسير الحياة والأحياء؟

ألا فلتسْقنا يا صبح من أجفانها الصادقة دمعًا طهورًا، عسى أن نتعلّم كيف نسقي بعضنا البعض! بُح بأسرارك يا صبح، واصدح بحناجر من نور فلتصدح.. أفما آن الأوان أن تسمع الآذان بلاغة صمْتِك الصاخب فتفقه؟ ألا نزعتَ الغشاوة عن أعيننا لنبصر الحكمة في عينك؟ ألا أعرتنا بؤبؤك قليلاً لندرك سرّ هذه السكينة المرسومة على وجهك؟ أيا صبح برّد لواعج روحي ولو بقطرة من رحيق أنوارك!

ها ولجتُ الآن بساتين عذراء وأنا مُتأبطة بذراع ضيائك.. أكتافي ملتصقة بأكتافك.. معا نمشي الهويْنا والعصافير تتهادى فوق رأسيْنا، تغرق في يمّ أحلامها البيضاء. الله.. ما أرحم بديع الأرض والسماء؛ خلق العصافير بهجة للأحياء، فما عساها تكون الأرض بلا موسيقى أو غناء؟ ها تسبّح الروح مذهولة لأعظم فنّان.. وإذا بأربعة فتيان يصوّبون بنادقهم صوب أسراب الجمال، فيخلفو وراءهم دمارًا ودخانًا.

وا صبحاه! ما لهم يتكالبون على أكل عصفورة لا يسدّ لحمها حتى جوع فأرة؟ بالله عليك يا صبح علّمهم أن التهام ألوانها وأنغامها خيرٌ لهم من التهام لحمها، وأن التلذّذ برؤية خفق جناحيها أعظم بكثير من التلذذ بعظامها. ولتأذن لي بعدها يا صبح، أن أحلم بميلاد إنسانية رقيقة.

ها أقبلتْ سلحفاة تدبّ فوق المنعطفات ببطء، وذا غزالٌ يعدو بسرعة الريح، والنسر قد بلغ قمّة الجبل بخفقة واحدة من جناحيه. طريق السلحفاة لا يشبه طريق الغزال ولا طريق النسر.. أسلوب السلحفاة مختلف عن أسلوب الغزال وكذا أسلوب النسر.. جميعهم عباد الله وإن لم يفقه بعضهم تسبيح بعض، لكل منهم مذهبه ومنهجه وطريقته، لكن أحدهم لا يكفّر الآخر، لا وما تصارعوا يومًا صراعات طائفية مجنونة. فعلام يا صُبْح أرى البشر يتقاتلون، عاجزين عن التعايش مع بعضهم البعض؟ ما دامت غايتي من مذهبي هي الوصول إلى الله، وما دامت غاية أخي الوصول إلى الله أيضًا، فما شأني إن سلك طريقًا آخر غير طريقي؟ لربما كنتُ سلحفائية الحركة في حين يملك هو أجنحة قوية.

ناشدتك الله يا صبح أن تعلّمنا أن صدر الدين أوسع، وأن الربّ واحد، واختلاف الأفهام، وتفاوت الأذواق، وتباين الطرق، لا يستدعي العداء والتناحر والبغض. ثم لتأذن لي بعدها يا صبح أن أحلم بميلاد إنسانية رحيمة.

ها حشراتٌ وطيور وحيوانات تسرح وتمرح في الغابات، تطلب الرزق من بقعة لبقعة.. تسافر، تهاجر دون أن تحمل جواز سفر ولا تأشيرة مرور، ذاك هو دستور الحياة.. أما في دستور بني الإنسان فمن أين وإلى أين وكم ومتى وكيف؟ واخجلي من دستورنا المعقد يا صبح أمام دستور الأكوان! أفلا أزحتَ عنّا ظلام الجهل بشمسك الساطعة؟ أليست الأرض وحدة كاملة لجميع الأحياء؟ فما بالنا نجزّئها بالحدود والتخوم؟

أجبني يا صبح أجب، بثغرك النوراني فلتُجِب.. علّمنا ممّا علّمك الله.. عسى أن تستيقظ شمس أرواحنا، وتنهض من سرير سباتها. ثم ائذن لي بعدها يا صبح أن أحلم بميلاد إنسانية حكيمة.

ها أسْرَةٌ من صخور متراصّة يحسبها الرّائي صمّاء، وفي جوفها رقصة الحياة، في تماسكها ملاحم وعظات، تتعانق سواعدها جماعات جماعات، تحمل بعضها بعضا قرونًا طويلة دون أن تئن أو تشكو أو تتذمّرا! حبّذا يا صبح أن تزيدنا من فقه الحياة حتى نتعظ ونخشع أمام عظمة الخالق وجبروت صنعته، فنتواضع ونخفّف من غلوائنا وغطرستنا. ثم لتأذن لي بعدها يا صبح أن أحلم بميلاد إنسانية جميلة.

أيها النور المنبثق من الظلام، ما أحْراك بآذان تُحْسِن فن الإصغاء إلى غنائك، لأنت أبدع قصيدة نظمتها السماء.. خذنا إلى ملكوت عليائك، اهدنا بضيائك، ارتحل بنا فوق مطايا أنوارك، بُحْ لنا بكل ما في جبينك الوهّاج، من أسرار تآلف الكائنات وإخائها وتعاونها، ثم افرك بشروق شمسك أعيننا، عسى أن نحظى بميلاد إنسانية جديدة. ■

(*) أديبة إماراتية.

د. محمد جكيب*

إذا أفشى أحدهم سرّك مرة ومرتين، أليس من الغباء أن تودعه سرّك ثالثةً، فإنْ دلَّ ذلك على شيء فإنما يدل على قصر نظرك، وقلة إدراكك، أما مَن أنضجته التجربة فلا يلدغ من جحر مرتين.

(الموازين)

* * *



سلطة الكلمة وقوتها - ١

الكلمة[1] سلطة وقوة... الكلمة فعل ومفعول، أثر وتأثير... الكلمة مفرد على الحقيقية، لكنها جمع على المجاز لدلالتها على متعدد، إذ من الكلمة يتكون الكلام المفيد الدال على معنى، الكلمة فعل واسم وحرف... فهي حدث وشيء وسمة هذا الشيء، وهي رابط وواصل، وبالكلمة نصل ونتواصل، نفهم الماضي ونعي الحاضر ونبني المستقبل.

عالم الكلام عالم عجيب، متى أُعطي الإنسان زمامه وتحصل ناصيته وانكشفت له أسراره ومسالك تصريفه وصياغته، فتح القلوب وشد العقول واكتسح الأرواح.

الكلمة مفتاح أسرار الوجود

الكلمة قوة خارقة، بمفعولها خلق الله الوجود كله، بل هو يعيد -جل وعلا- الخلق في كل وقت وحين... فـ"كن" التي خلق بها الله تبارك وتعالى كل شيء كانت مرة واحدة، لكنها ما تزال سارية المفعول إلى ما شاء الله... وبالكلمة والكلام قدر الله تعالى على الإنسان التفاعل مع الوجود، ومعانقة

حقيقة الخالق ومخلوقاته. وكلمة "اقرأ" هي أول ما لقنه جبريل ﷺ بأمر الله تبارك وتعالى الرسول ﷺ؛ ففِعْل القراءة "كلمة"، لكنها كلمة ذات امتداد واسع في الزمان والمكان وفي الدلالة والمدلول. فقد قرأ الرسول ﷺ بعد هذا الأمر كل شيء، واستوعب بُعدَ القراءة ومفهومَها؛ لقد قرأ الوجود وأدرك حقيقته واستوعب دلالته كما استوعب كل الأنبياء والرسل ذلك قبله، لكنه حصَّل ﷺ كل ما استوعبوه ووعته أرواحهم الصافية النقية. لكن صفاء روح الرسول ﷺ تتقدم بمسافات عليهم جميعًا، لأنها المحضن الذي اختاره الله تبارك وتعلى لاستقبال بيانه الختامي. وسيرته ﷺ أكبر دليل على أنه اختير اختيارًا من أجل تلقي هذا البيان، الذي يمثله خطابه في القرآن الكريم، وتشهد عليه تفاصيل الوجود كله.

إن الكلمة مخلوق من مخلوقاته تعالى، بها ترجم قدرته المطلقة، وبها وصف أسماءه التي تجلى بها على الوجود، ولذلك فإن إدراك حقيقة الكلمة، هو إدراك لهذه القدرة المطلقة، فلقد شاءت إرادته تعالى أن تكون الكلمة وسيلة إنطاق المخلوقات، بما في ذلك الذات الموظفة للكلمة.

قال الله تبارك وتعالى "كن" فكان الوجود كله، واكتسبت كل المخلوقات بفعل "كن" بيانًا عظيمًا يجلي عظمة من خلق وعظمة من قال: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. ولذلك فهذا الوجود الجميل الرائع الصنعة الدقيق الإبداع، يعبر ببيانه عن كثير من أسماء الله الحسنى التي تجلى من خلالها على الوجود. فبيان الموجودات ومنطقها، تعبير عن قوة وعظمة المتجلي بقدرته على الوجود، بل هو بيان يعكس جزءًا يسيرًا من البيان المطلق الذي هو انعكاس أسمائه الحسنى.

"البيان" كما يعرفه الأستاذ فتح الله كولن، هو روح كتاب الكون ومضمونه ولونه وأسلوبه، وهو قانون المخلوقات المتفاعلة في الكون، وهو كذلك ختم الحقيقة الإسلامية وسلطتها. فـ"البيان" بهذا المعنى، منهج يدرك به الإنسان -باعتباره أرقى مخلوقات الله تبارك وتعالى- عظمة مصدر القدرة المطلقة، ووسيلة لمعرفة الخالق والسير إليه تعالى. فإدراك البيان في أصله وحقيقته، هو إدراك الوجود في كل تفاصيله الكلية والدقيقة، وهو الوعي بمكان الإنسان في النظام المتوازن الذي صب الله فيه الوجود.

والبيان كذلك قوة كبيرة وسلطة تؤجج القلوب وترفع مستوى قابليتها وقدرتها على الفعل؛ فقد تكون الهمم حاضرة موجودة، لكنها إذا لم تجد الفاعلية التي تحرك كيانها من الجذور، فستظل في حالة من الكمون والانتظار الطويل، ولذلك اعتبر البيان محركًا فعالاً يبعث الأموات وينفخ الحياة وينشر الدفء.

يدرك أهل الإبداع والبيان على الحقيقة لزومًا، بأنهم مهما وصلوا ومهما ارتقوا في دائرة البيان، فهم مجرد دالين يدلون بوسائلهم المحدودة على البيان المطلق ويعبرون بوسائله وأدواته عليه، فهم يعرفونه لغيرهم ممن لم يفتح الله عليهم بإدراك بعض جوانبه. ولهذا كان أهل الفن والأدب وأرباب الكلمة، ملزمين بالاسترشاد ببيان صاحب البيان، وملزمين بالدلالة عليه والإرشاد إليه، أما غيرهم فهم الغاوون ولا يتبعهم سوى الغاوين.

عجز أرباب البيان

كان العرب قبل نزول الوحي، أرباب البيان واللغة والشعر وفنون القول من خطابة وسجع وغيرها... وكانت لهم قدرة كبيرة على إدراك جمال البيان، وتبيين مكامن دقة التعبير وسمو اللفظ ورشاقة العبارة... ولذلك فإن أول ما بهرهم في القرآن الكريم هو مطلق بيانه، بالإضافة إلى وضوح الحجة وعقلانية الفكرة ومنطقها... وفي لحظة وجيزة ألْفوا أنفسهم -وهم أرباب البيان وأهله وأصحاب القول الفصل فيه- عاجزين عن منافسته والإتيان بمثله. لقد بهرهم القرآن الكريم ببيانه وتفوق بمسافات لا تحسب على بيانهم، تجاوزهم القرآن الكريم وتركهم خلفه يلهثون، وتجاوز الصورة المثالية التي ظلت دهرًا طويلاً منقوشة في ذهنهم على أنها النموذج المثالي للقول وقوة العبارة، فاقتنعت العقول بأن مصدر البيان القرآني ليس من بشر يساويهم في القدرة الذهنية والبيانية، بل هو من مصدر آخر، وأدرك أهل النفوس الطيبة بأن صاحب البيان الذي وجدوه في خطاب القرآن الكريم، ذو قدرة خارقة على البيان، وأنه هو الله تبارك وتعالى. كان الناس على عمومهم يعرفون الله لكنهم أشركوا معه آلهة توهموها، وأبطلوا مع مرور الزمن ربوبيته، لكن خطاب القرآن المبين، فتح قلوب العديد منهم فآمنوا وأعلنوا عبوديتهم لله تبارك وتعالى

وسلموا بما نزل على محمد ﷺ. وأما إصرار البعض على إنكار حقيقة البيان الظاهر، فلم يكن ليغطي على من آمن بمجرد سماع بضع آيات منه أو سور منه كما وقع مع عمر بن الخطاب ﷺ، وقصة إسلامه مشهورة تذكرها كتب السير والمناقب وكتب النقد.

إن رد فعل القلوب والعقول الطيبة المتوازنة العادلة الصادقة، هو الاعتراف بأن مصدر البيان القرآني، لا يمكن أن يصدر عن بشر وإن كان هذا البشر يستطيع فهم معانيه وإدراك مراميه، لقد أدرك هؤلاء أنه ليس من محمد ﷺ.

كان العرب قبل نزول القرآن الكريم يفسرون الإبداع والأدبية[٢] تفسيرًا خاصًا، فربطوا السجع بالكهانة -والكهنة فئة اجتماعية ادعت قدرة خارقة كمعرفة المستقبل والاتصال بعوالم غائبة- وقالوا إن لكل شاعر شيطان يوحي إليه الشعر ويعينه على الإبداع والتفوق الفني والأدبي، وسموا بعض شياطين الشعر هؤلاء، بل ارتبط أغلب فحول الشعراء بأسماء شياطين بعينهم ذكر "أبو زيد القرشي" بضعًا منهم في "جمهرة أشعار العرب". فالتفوق في القول والإبداع قد ارتبط في ذهن أهل الجزيرة العربية بقوى خارقة، لكنها مع نزول القرآن الكريم ستأخذ بُعدًا جديدًا وهو الاقتناع بأن البيان الحقيقي هو من الله تبارك وتعالى، وكل البشر عاجزون عن محاكاة البيان الإلهي والإتيان بمثله.

مدارات البيان في القرآن الكريم

إن مدار البيان القرآني لا يميل في عمومه عن بسط مختلف مقومات العبودية لله تبارك وتعالى، والدلالة على مخلوقاته التي هي بوجه من الوجوه بعض عناصر "البيان"، وكأن البيان متفرع إلى مظهرين:

- مظهر شهودي تقوم فيه الموجودات وتناسقها ببيان الوجه الأخر للبيان الكلي، الذي يعتبر الرسل الكرام عليهم السلام مرشدين إليه ودالين عليه، والذي يعتبر الرسول ﷺ رائد الرسل جميعًا وإمامهم فيه.
- ومظهر لغوي تؤدي فيه الكلمة مهمة أساسية، ويقوم فيه إحكام النظم بدور حيوي، لتتجلى بذلك معالم البيان المتمثلة في حسن اختيار اللفظ ودقة التماس العبارة المناسبة للمقام المناسب وترتيب اللفظ وفق حاجة الدلالة. وإذا كان لكل مقام مقال كما يقال، فإن البيان القرآني هو النموذج المثال لهذه الحقيقة التواصلية.

إذا كان البيان هو روح كتاب الكون ولونه ونموذجه المفتوح، فإن تذوقه وإدراك دقته وعظمة انسجامه يحتاج إلى قلوب واسعة تستطيع فك ترميزه بكل جوارحها، ولا يَفُكُّ رموزه سوى من تشربت روحه الشفرة الدلالية والنظام التداولي لمكونات هذا البيان.

ونظرًا لعظمة البيان القرآني وجلائه، التف الناس جميعًا تحت لواء التوحيد ودخلوا في الإسلام أفواجًا، وعرف الذهن تحولاً كبيرًا فانطلق متأملاً الخطاب القرآني وبيانه، فاستخلص علمًا من أجل العلوم وأقدمها في تاريخ حركة الإبداع الإسلامي، وهو علم الإعجاز الذي يهتم بالبيان باعتباره سبيلاً من سبل المعرفة، ومنهجًا يؤدي إلى معرفة أصل البيان جل وعلا.

سلطة "البيان" وقوته لا حدود لهما، لأن هذا "البيان" يمد الجماد بالحياة، ويحرك الأحياء ويأسر الجموع بقوة تأثيره، ويدفعهم إلى أقصى حدود طاقتهم كما يقول الأستاذ فتح الله كولن. ولنا في التاريخ نماذج خطابية حركت الجموع ودفعتهم إلى أقصى حدود طاقتهم... فهذا طارق بن زياد وقد عبر من إفريقيا في شمال المغرب إلى الضفة الأخرى حيث القارة الأوربية فاتحًا، فخطب في مَن معه -بعد أن أقدم على حرق السفن التي عبرت المضيق- خطبة سجلها التاريخ وكتبها النقد والأدب بمداد الفخر، باعتبارها خطبة حركت القلوب وشحنت الهمم.

لا شك أن الخطبة وكلماتها قد كانت سببًا من أسباب زرع التوحيد في هذه المناطق من أرض الله تبارك وتعالى، فقد سُخّر البيان ليكون قوة تصنع المستحيل، وتعرف بالبيان الذي بني الوجود كله على أساسه... فالذي مكّن طارق بن زياد وهداه إلى ما هداه إليه، هو الروح الصادقة المتفاعلة مع البيان الكلي، إذ عَبَرتْ من خلاله إلى كل القلوب... ولا ندري من كان يخطب، أهو طارق بن زياد أم هو صاحب البيان، أنطق طارق بن زياد فعبّر بالبيان عن البيان، وعبَر بالبيان إلى القلوب والأرواح؟!

إن الكلمة باعتبارها الوحدة القياسية الصغرى التي يقاس

بها البيان، لا تحدث تأثيرها ولا تحقق مفعولها إلا عندما توحد قبلتها جهة البيان المطلق وتسخر نفسها في دائرته، ولابن عربي كلام جميل يشخص فيه البعد الروحي للكلمة حين يقول:

"قال الحق للكلمة:

أنت مربوبي وأنا ربك.

أعطيتك أسمائي وصفاتي:

فمن رآك رآني،

ومن أعطاك أعطاني،

ومن جهلك جهلني،

فغاية من هم دونك،

أن يتوصلوا إلى معرفة نفوسهم منك.

وغاية معرفتهم بك،

العلم بوجودك، لا بكيفيتك."[٣]

إن الكلمة مخلوق من مخلوقاته تعالى، بها ترجم قدرته المطلقة، وبها وصف أسماءه التي تجلى بها على الوجود، ولذلك فإن إدراك حقيقة الكلمة، هو إدراك لهذه القدرة المطلقة، فلقد شاءت إرادته تعالى أن تكون الكلمة وسيلة إنطاق المخلوقات، بما في ذلك الذات الموظفة للكلمة. بعبارة أخرى، فقد خلق الله الوجود كله بكلمة، وبالكلمة تتمكن كل هذه الموجودات من أن تبين بما في ذلك الإنسان ذاته، ولذلك فإن البيان هو روح الكلمة، باعتبارها سبيلاً من سبل الاعتراف بالربوبية.

خلق الله الوجود بعلمه وخط هندسته بكلماته، واختص الإنسان دون سائر المخلوقات بنعمة الكلام ونعمة البيان والإفصاح عما في داخله وما يريده، إذ إن أول ما علمه الله تبارك وتعالى لهذا الإنسان بعد صنعه له ونفخه الروح فيه هو الأسماء، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة:٣١)، فنفخ الروح يمثل الاستعداد المعنوي لتلقي علم الأسماء ومعرفتها.

يبين الأستاذ فتح الله كولن، أن الإنسان خليط من تراب وماء، وأنه مستودع العلم والمؤتمن عليه، ولكونه يملك القدرة على البيان، فقد ربي في سلطنته على الأرض، أي على التراب الذي خلق منه، ولذلك فإن الكائن الإنساني يملك القدرة على الحديث ليس باسمه فحسب، بل باسم جميع الكائنات، إذ بفضل نعمة البيان صار هذا الإنسان مخلوقًا يتوجه إليه الخالق، كما يتوجه هو (أي الإنسان) إلى الله تبارك وتعالى، وبالبيان استطاع هذا الإنسان التعبير والإفصاح، وبتعبيره تمكنت الموجودات هي الأخرى أن تبين، وهي التي كانت قبل ذلك صامتة.

فقبل البيان الذي عُلّمه الإنسان كانت الكائنات صماء بكماء جامدة ولا أحد يستطيع معرفة كيفية كانت تبين، لكن المعروف هو أن الإنسان قد استطاع بنعمة البيان فهم وتأويل ونقل بيان كل الموجودات الأخرى، فكل كائن في هذا الوجود نموذج يتكلم، لكن لكل كائن أسلوب ميزه الله به، هو كلامه. والكلام وسيلة تتيح معرفة الحقيقة المطلقة التي هي حقيقة الخلق، إذ يصير كل شيء كآلة موسيقية تؤدي سيمفونية ترفع الستار عن حقيقة المخلوقات ومهمتها في نظام البيان الكلي، فالبيان هو مفتاح أقفال كل الأبواب التي تؤدي إلى كنوز الفكر والمعرفة.

وإذا كان البيان هو روح كتاب الكون ولونه ونموذجه المفتوح كما يقول الأستاذ فتح الله كولن، فإن تذوقه وإدراك دقته وعظمة انسجامه، يحتاج إلى قلوب واسعة تستطيع فك ترميزه بكل جوارحها، ولا يَفُكُّ رموزه سوى من تشربت روحه الشفرة الدلالية والنظام التداولي لمكونات هذا البيان. وهذه القلوب هي قلوب أهل الهم والهمة وفرسان القلب والحركية، الذين عشقوا البيان، والذين يحملون الإكسير إلى كل القلوب فتزداد المؤمنة منها قربًا من ربها، ويزداد يقينها بأن لكل مخلوق في الوجود وظيفة يتعين عليه القيام به، لا فرق في ذلك بين المخلوق في حد ذاته، وبين ما يوفق الله هذا المخلوق إلى إنتاجه أو إبداعه. ■

(*) جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الجديدة / المغرب.

الهوامش

(١) استلهم هذا المقال من كتاب الأستاذ فتح الله كولن: "البيان".

(٢) لا نقول هنا "البيان"، لأن البيان مصطلح يدل على الخطاب الإلهي المتمثل في القرآن الكريم وفي جميع مظاهر الوجود الذي خلقته القدرة الإلهية.

(٣) الفتوحات المكية، تح: د. عثمان يحيى ود، إبراهيم مدكور، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦: السفر الثاني، ج:١٠، ص:١٩٤.

أ.د. عبد العزيز المقالح*

صلاة الروح

ليس شعرًا ما أبوح به — بل أنين الروح في الجسد
تشتكي من ليل غربتها — عن زمانٍ حالم رَغَدِ
فارَقَتْهُ وهي باكيةٌ — في ضحى مستوحشٍ نكد
هبطتْ في الجسم مرغمةً — كهبوط الجسم في اللحَدِ
كلما نامت مواجعُها — أيقظتها صرخةُ الكمد
تركتْ شمسًا بلا لهبٍ — وضياءً غيرِ متقدِ
كنتُ طفلًا عندما هطلت — في أثيرٍ طاهرٍ أبدي
سكنتني فاستضأتُ بها — وكفتني شرَّ ذي حَسَدِ
هي من قبلي على شغفٍ — وهي من بعدي على رشدِ
أرّقتني بالحنين إلى — شاطئ مخضوضر الزبد
مورقٍ حصباؤه درر — زاهيات ضفتاه، ندي.

يا ابنة النور التي سكنت — أضلعي واستوطنت كبدي
أنت من نور الإله سنىً — يرتوي من فيضه الصمدي
وأنا يا روح، أنتِ، فإن — تهجريني، صار أمس غدي
في فؤادي ثورةٌ ودمي، — وهما لولاك في بدد
فأفيضي من سناك على — لهبي فيضًا من البرد
قد مللت العمر أذرفه — في جحيم غير مبترد
زاهدٌ لا شيء يأسرني — غير حب الواحد الأحد

هو في السراءِ نافذتي ... وهو في الضراءِ معتمدي
أنا في ذكراه منجذبٌ، ... سارح، لا توقظو خَلَدي
شاردٌ في أفق طلعته ... أتقرّى نوره بيدي
عاشق لم تسبني أبداً ... مقلةٌ للفاتن الغرد
حيرتي فيما أراه هنا ... في وجوه الناس من عُقد
وخلافات مروّعةٍ ... لم تدع في الأرض من أحد
طال في ليل النوى سفري ... وهوى من طولهِ جَلدي.

يا زمان الوصل في وطنٍ ... سرمدي الوصل والأمد
تحت عرش الله، يرفده ... ملكوتُ الحب بالمدد
كم شربنا من مناهله ... وارتوى بالنور كل صدي
يتساوى في شريعته ... أرنبُ الغابات بالأسد
ما الذي يبقى لعالمنا ... من مُنىً، أو طارفٍ تلد
ما الذي يبقى له ولنا ... في مدىً بالهول محتشد
إن تخلى عن سكينته ... وتناسى واحدَ العَدد
بارئ الأكوان مبدعها ... في بناءٍ باذخ صَلِد
هو في سري وفي علني ... هو في نومي وفي سَهَدي
هو في حلي ومرتحلي ... هو في أهلي وفي ولدي
هو في خبزي وفاكهتي ... هو في قومي وفي بلدي
وله أسلمت ناصيتي ... وحدَهُ "سبحانه" سندي.

(*) شاعر يمني.

محمد أحمد المعصراني*

مَنْ تعوّد على إفشاء أسرار الآخرين لك لا تأمنه على سرك، لأنه كما فعل بأسرار الآخرين فإنه سيفعل بأسرارك.

(الموازين)

* * *

أثر الوقف في التكافل الاجتماعي

لـلأوقـاف أثر كبير في شـتى مجالات الحياة، وأثـر كبيـر -كذلـك- فـي تنميـة المشـاعر والأحاسـيس الإنسـانية. ومن آثار الأوقاف، ذلـك الأثـر الجليـل الذي شـمل طبقـات المجتمع المسـلم كلهـا، ألا وهو الأثر الاجتماعي الـذي ظهرت صوره الكثيرة فـي تنـوع الأشـياء الموقوفـة وتنوع أغـراض واقفيهـا. وفيما يأتـي، مـا وقفت عليه من تلك الصـور التي تدل على مجتمع متماسـك يحب أفرادُه الخيـر لغيرهم، ويحتسـبون ما يقفونه عند الله سـبحانه، وتدل في الوقت نفسه على إحساس رهيف وتقديـر للمسـؤولية الملقاة على عاتقهم تجاه غير المسـتطيع من المجتمع المسلم.

الوقف على رعاية الأيتام واللقطاء وكفالتهم

رتب "الظاهر بيبرس" (ت ٦٧٦هـ) لأيتام الأجناد ما يقوم بهم رغـم كثرتهم. وأنشـأ "مظفر الديـن كوكبـوري" (ت ٦٣٠هـ) ملجـأ للأطفـال الأيتـام -بنين وبنـات- الذين فقـدوا آباءهم وأمهاتهم، ومَن لا عائل لهم، فحفظهم بذلك من خطر التشرد ومفاسـده، وزود الملجـأ بكل ما يحتاجـون إليه من مقومات الحيـاة، كما عين فيه المشـرفات على تربيتهم، وكان يزورهم بين الحين والحين، ويزوجهم حين يبلغون سن الزواج. وبنى للقطـاء ملجـأ زوده بالمرضعـات، فكان كل لقيـط يعثر عليه يُحمـل إلى هذا الملجأ، فيسـلَّم إلى إحدى المرضعات لتقوم علـى إرضاعه وتربيته... وبهذا العمل الإنسـاني الجليل حفظ "مظفر الدين" أرواحًا كان مصيرها الهلاك والموت.

الوقف على أهل الحرمين الشريفين

وتمدنـا المصادر التاريخية بنمـاذج كثيرة من مثل هذا الوقف النبيل؛ فقد وقف "نور الدين محمود" (ت ٥٦٩هـ) وقوفًا كثيرة على سكان الحرمين الشريفين، بل إنه كان يقطع أمراء العرب الإقطاعـات حتى يكفوا عن التعـرض للحجيج، ووقف وقفًا على المجاورين بالحرمين.

وكان "مظفـر الديـن كوكبوري" يقيم في كل سـنة سـبيلاً للحـاج، ويسـير معـه جميع ما تدعـو حاجة المسـافر إليه في الطريق، ويسـير صحبته أمينًا معه خمسـة أو سـتة آلاف دينار ينفقها بالحرمين على المحاويج وأرباب الرواتب، وله بـ"مكة" -حرسـها الله تعالـى- آثار جميلة بعضها بـاقٍ إلى الآن. وهو أول مـن أجرى الماء إلى "جبـل عرفات" ليلة الوقوف، وغرم عليـه جملـة كثيـرة، وعمر بالجبـل مصانع للمـاء، حيث كان الحجاج يتضررون من عدم الماء.

وقف الدور والخانات على أبناء السبيل والفقراء

وذلك تخفيفًا عليهم من مشقة الطريق ووعثاء السفر، يقيمون فيها ما شـاؤوا أن يقيموا، مع إسباغ النفقات وإجراء الأرزاق عليهم من غذاء وكساء وصلات ما داموا مقيمين بها.

وقد انتشـرت دور الضيافـات والخانات في أرجاء الدولة الإسلامية، ومن هذه الخانات ذلك الخان الذي عمره "الظاهر بيبرس" بـ"القدس"، ووقف عليه أوقافًا للنازلين به من إصلاح نِعالهم وأكلهم وغير ذلك، وبنى به طاحونًا وفرنًا.

الوقف على تزويج الأيتام والفقراء والجواري

وهذه الأوقاف (أوقاف التزويج) كانت -كغيرها- منتشـرة في أرجاء الدولة الإسلامية. وقد ذكرها "ابن بطوطة" (ت ٧٧٩هـ) فـي رحلته حين نزل "دمشـق" فقال: "والأوقاف بـ"دمشـق" لا تحصـر أنواعها ومصارفهـا لكثرتها، فمنها أوقـاف للعاجزين عـن الحـج يعطى لمن يحج عـن الرجل منهـم كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن".

وكان الخليفـة العباسـي "المسـتنصر بـالله" (ت ٦٤٠هـ) يتقصـد الجـواري اللاتـي قـد بلغـن الأربعيـن، فيشـترين له فيعتقهن ويجهزهن ويزوجهن.

وقد يتقدم الفتى أو الفتاة إلى قيم الوقف، يطلبان المعونة لزواجهن فيعطيهما ما هما بحاجة إليه.

الوقف على إصلاح ذات البين

وهـذا الوقـف من فرائـد الأوقاف النادرة. فقـد ذكر أنه كانت بمدينـة "مراكش" دار تسـمى "دار الدقة"، وهـي ملجأ تذهب إليه النسـاء اللائي يقـع نفور بينهن وبيـن أزواجهن، فلهن أن يقمن به آكلات شاربات إلى أن يزول ما بينهن وبين أزواجهن من نفور.

وظاهـر أن هـذه الـدار موقوفة علـى النسـاء الغريبات أو اللائـي لا أهالـي لهـن، وذلك خشـية أن يسـتغل زوج المرأة منهن هذه الناحية في زوجته فيظلمها، أو يسيء معاملتها وهو يعلم أن لا ملجأ لها ولا أهل يأخذون بناصرها.

وقَـف الواقـفُ المحسـنُ هـذه الـدار لأولئـك النسـوة، ووظـف لها نسـاء يقمن فيها علـى رعاية النسـوة الغاضبات، إلى أن تنصلح الحال وتعود ربة البيت إلى بيتها وزوجها. فما الـذي يـدل عليه هذا الوقـف اللطيف غير "التفنـن" في رعاية المحرومين والتماس شوارد السعادة لكل الناس، فحتى الزوجة الغاضبة من زوجها وجدت لها في أوقاف المسـلمين ناصرًا.

فأيـن المرأة الغربية اليوم؟! أهي أسـعد حـالاً وأوفر حرية مـن المرأة المسـلمة في جو الإسـلام القديـم والحديث؟ ألا تدل "دار الدقة المراكشـية" هذه على نصرة المجتمع المسـلم للمرأة حتى آخر المدى.

الوقف على الأرامل الفقيرات وإقامة دور لهن

وكان للـولاة اليـدُ العليـا في هذا الوقف، حيـث كان "بدر بن حسـنويه" (ت ٤٠٥هـ) يصرف كل أسبوع عشرين ألف درهم على الفقراء والأرامل.

وبنـى "مظفـر الدين كوكبـوري" دارًا للأرامـل الفقيرات، اللاتـي يتوفـى عنهن أزواجهـن، وليس لهن مـن يعولهن من أقـارب، حيـث أعـد الـدار بـكل مـا يحتجـن إليه مـن مأكل ومشـرب وملبس. وكان يتعهدهن بنفسـه، فيزورهن ويسألهن عما يحتجن إليه، فكان يأمر بتلبية ما ينقصهن واستكماله.

الوقف على تكفين الموتى

كان "بدر بن حسـنويه" ينفق كل شـهر عشرين ألف درهم في تكفيـن الموتى. وكفـن الملك العادل "أبو بكر بن أيوب" (ت ٦١٥هـ) مائة ألف إنسان من الغرباء والفقراء، وذلك في السنة التالية لسـنة الغـلاء بـ"مصر". ووقف الملـك "الظاهر بيبرس" وقفًا على تكفين أموات الغرباء بـ"القاهرة" و"مصر". ولما كان الطاعون بـ"بلاد الشـام" سـنة (٧٤٩هـ)، كثـرت الموتى، وزاد ضمان الموتى جدًّا، فتضرر الناس ولا سـيما الصعاليك، فإنه يؤخذ على الميت شيء كثير جدًّا، فرسم نائب السلطنة بإبطال ضمان النعوش والمغسـلين والحمالين، ووقف نعوشًـا كثيرة في أرجاء البلد.

الوقف على عتق الرقاب

وهـذا الوقف مـن الأهداف الاجتماعيـة الجليلة للأوقاف؛ إذ لا يخفـى أثره علـى المجتمع كله. ولقد أعتق كثيرون رقيقهم فـي ظل الإسـلام، وقد وقفت أموال كثيـرة لأجل ذلك. ومن عجائـب هـذا الأمر أن "روح بن زنبـاع" (ت ٨٤هـ) كان كلما خرج من الحمام يعتق نسـمة. والرسول ﷺ كانت آخر وصاته الوصاة بالإماء والعبيد.

روى ابـن ماجة بسـنده عن أنس بـن مالك ﷺ قال: كانت عامـة وصيـة رسـول الله ﷺ حيـن حضرته الوفاة وهـو يغرغر بنفسه: "الصلاة وما ملكت أيمانكم". فما أوفى العبيد والإماء حظًّا حين تكون الوصاة بهم آخر كلام النبي ﷺ.

وقف الأسبلة

من المنشـآت الاجتماعية التي ازدهرت بازدهار الأوقاف إلى حد كبير الأسـبلة، وكان الغرض من السـبيل تيسـير الحصول على ماء الشـرب. وقد عني السـلاطين بإنشـاء أسـبلة للناس والحيوانـات في مختلف المواضع. "وجرت العادة بأن يلحق السـبيل بالمسـجد، وأن يكون فوقه في الغالب مكتب لتعليم الأيتام. وفي العصور الماضية كان الحصول على المياه العذبة من المهام الشـاقة، لذلك أصبح تسـبيل الماء العذب وتسهيل الحصول عليه من وجوه البر التي يعني بها الواقفون، ويقفون علـى اسـتمرار أداء خدماتهـا العقارات المختلفـة. ومن أجل ذلك أيضًا أنشـأ الواقفـون الصهاريج لملئهـا بالماء المنقول. فتنـص وثيقة وقف "الأمير صرغتمش" على أن يصرف الناظر من ريع الوقف المذكور فيه في كلفة نقل ماء عذب من النيل المبـارك فـي كل يـوم إلـى المزملة المذكورة، برسـم شـرب المقيمين بالمدرسة المذكورة والواردين إليها، من ثمن جِمال ينقلون عليها الماء وأجرة عمالين عليها.

وقـد قام بتسـبيل الماء في السـبيل المزملاتي الذي يؤدي عملـه فـي الأوقـات المحددة فـي الأيـام العادية وفي شـهر رمضـان، وكانت بعض الأسـبلة لا تفتـح إلا بين صلاة الظهر والعصر في وقت الحر الشديد. وتمتعت هذه الأسبلة بأوقاف للإنفاق عليها منها، وكثيرًا ما اشـترط الواقفون في المزملاتي شروطًا جسمية وخلقية خاصة، كأن يكون سالمًا من العاهات والأمـراض وبخاصـة الجذام، كما اشـترطوا أن يسـهل على النـاس ويعاملهم بالحسـنى والرفـق، ليكون أبلـغ في إدخال الراحة على الواردين صدقة دائمة وحسنة مستمرة.

الوقف على إخراج من حبسه القاضي من المقلين

مـن وجوه البر والقربات التي تنافس فيها الواقفون، تخليص السجناء الفقراء من الحبس. فقد نصت وثيقة "وقف السلطان حسـن" (ت ٧٦٢هـ) علـى هـذا الهـدف النبيل، حتـى يرجع

المسجونون إلى أهلهم ويتفرغوا لإعالتهم، وقد سمت الوثيقة هذا الوقف بـ"خلاص المسجونين".

الوقف على إفطار الصائمين الفقراء وسحورهم

كان الملك "الظاهر بيبرس" يرتب في أول رمضان بـ"مصر" و"القاهرة" مطابخ لأنواع الأطعمة، تفرق على الفقراء والمساكين. ولما ملك "الأشرف" (ت ٦٣٥هـ) "دمشق"، كانت القلعة لا تغلق في ليالي شهر رمضان كلها، وصحون الحلاوات خارجة منها إلى الجامع والخوانق والربط والصالحية، وإلى الصالحين والفقراء والرؤساء وغيرهم.

الوقف على الحج عن الغير

من أمثلة هذا الوقف أن "بدر بن حسنويه" كان يصرف في كل سنة ألف دينار لعشرين نفس، يحجون عن والدته وعن عضد الدولة، لأنه كان السبب في تمليكه.

الوقف على حراسة الأماكن المخوفة

وهذا من فرائد الأوقاف. فقد رتب "نور الدين محمود" الخفراء في الأماكن المخوفة حرصًا وخوفًا على رعيته، وتأمينًا لهم على أنفسهم ومتاعهم، بل وزيادة في حرصه على رعيته وسلامتها، جعل في تلك الأماكن المخوفة الحمام الهوادي التي تطلعه على الأخبار في أسرع مدة حتى يكون في موقع الأحداث -إذا حدث شيء- بعد وقوعها مباشرة، بل إنه ربما أتى -أو أتى بعض رجالاته- في أثنائها.

وهكذا سمَتْ مشاعر القوم وأحاسيسهم ومسؤولياتهم، فما أحلى أن نربي مشاعرنا وأحاسيسنا ومسؤولياتنا، ونسمو بها حتى نسمو نحن الآخرين فتسمو الدنيا كلها بنا.

وقف الأواني

وهذا الوقف أيضًا من نوادر الأوقاف وفرائدها. يقول "ابن بطوطة" في رحلته: "مررت يومًا ببعض أزقة "دمشق"، فرأيت به مملوكا صغيرًا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني -وهم يسمونها الصحن- فتكسرت واجتمع عليه الناس. فقال له بعضهم: اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني. فجمعها وذهب الرجل معه إليه، فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن. وهذا من أحسن الأعمال؛ فإن سيد الغلام لابد أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره، وهو أيضًا يكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبرًا للقلوب. جزى الله خيرًا من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا".

الوقف على من يقرأ القرآن عن الميت عند قبره

فقد وقف أحد الملوك -رغبة في الثواب الدائم- أوقافًا عظيمة على من يقرؤون سبع القرآن كل يوم عند قبره. ووقف أحد ذوي اليسار وقفًا على من لا يحفظ ويقرأ من سورة الكوثر إلى الخاتمة عند قبره.

الوقف على إعارة الحلي

انتشر هذا الوقف في معظم البلاد الإسلامية، وأم المؤمنين حفصة (ت ٤٥هـ) رضي الله عنها، هي أول من وقف مثل هذا الوقف. فقد ابتاعت حليًّا بعشرين ألفًا ووقفته على نساء آل الخطاب. وبهذا الوقف يظهر الفقراء في أعراسهم في صورة الأغنياء الذين لا ينقصهم شيء مما يحتاجه العرس.

وقف الضيفان

يقول "محمد كرد علي" (ت ١٣٧٢هـ): إن أول من اتخذ دارًا للضيافة "الوليد بن عبد الملك"، ثم انتشرت بعد ذلك دور الضيافة في أرجاء الدولة الإسلامية، حتى كانت بعض المدن ملأى بدور الضيافة. فقد ذكر "ابن كثير" أن الخليفة العباسي "المستنصر بالله" أنشأ بكل محلة من محال "بغداد" دار ضيافة للفقراء، لا سيما في شهر رمضان.

وبنى "مظفر الدين كوكبوري" دارًا للضيافة في "إربل"، وفتح أبوابها لكل وافد إلى "إربل" ولكل عابر سبيل يقيم فيها ما شاء له أن يقيم، يتناول فيها طعامه وشرابه بلا مقابل، حتى كان عصره أبهى عصور مدينة "إربل" وأزهاها. وألحق "مظفر الدين" بالدار المطابخ لإعداد الأطعمة والأشربة للضيوف، وخصص للدار مائة ألف دينار سنويًّا تنفق لهذا الغرض. فكان كل وافد يقيم في الدار ما شاء له أن يقيم، فكان يجد الأمن والطمأنينة على نفسه وماله. ولم يكتف "مظفر الدين" بهذا، وإنما كان يدفع لكل ضيف فقير يعزم على مغادرة "إربل" نفقة لسفره، كل حسب احتياجاته، وكان -رحمه الله- ينفق كل عام عشرة آلاف دينار على السبيل. ■

(*) محقق تراث / مصر.

صالح الزهراني*

من تضاريس الجلال

لم يَحْلُ لي من بعد وجهك منظرٌ ... كل الدُّنا عَرَضٌ، وأنت الجوهرُ
طال الزمانُ، فقصرت أيامُه ... وأمام وجهِك كلّ طولٍ يقْصُرُ
آتي إليك يلفّني حبلُ الأسى ... ومدامعي من حُرقتي تتحدّرُ
فأطوف حولك، أستحيلُ قصيدةً ... في كل أُفْقٍ للروائعِ تبحرُ
يُطوى الزمانُ قديمُهُ، وجديدُهُ ... فتلوحُ من كل الجهاتِ الأعْصُرُ
فأرى النبيَّ جلالةً، ومهابةً ... وأرى المبادئَ كُلّ يوم تُنْصَرُ
وبلالُ يعلنُ للبطاحِ نشيدَهُ ... اللهُ من كل الخلائقِ أكبرُ
فتهشُّ مكةُ للنشيدِ يشدُّها ... طُهْرُ الكلامِ ومستواه المبهرُ
وأظلُّ أقرأُ في شموخك لوحةً ... أبعادُها مثلُ التُّقى لا تُحْصَرُ
شاخ الزمانُ، وأنت في حُللِ الصّبا ... تزهو فلا تبلى، ولا تتغيّرُ
نهرُ البياض إلى يديك مصبُّهُ ... بالحبِّ والشوق المغرّر يزخرُ
تعبتْ خطى الأحبابِ وهي مشوقةٌ ... ووقفتَ ترقبُ ركبَهم لا تفتُرُ
تغشاك من حُلَلِ السوادِ مهابةٌ ... لغةٌ من النمطِ المحككِ تسحرُ
فكأنّك العين التي تحتفُّها ... أهدابُها، وجبالُ مكةَ مِحجرُ
قِطَعُ الرُّخامِ، الصبحُ، أثوابُ الهُدى ... الحِجْرُ، زمزمُ، المقامُ، المنبرُ
صوتُ المؤذِّنِ والقناديلُ التي ... خشعَتْ أكُفُّهُمُ إذا ما كبَّروا
من مقلتيك يهلُّ مُزْنُ عقيدةٍ ... طينُ القلوبِ به نديٌّ مثمِرُ
وعلى مآذنك الشموخُ محلِّقٌ ... والمجدُ من أطرافِ ثوبِك يُظفرُ
ستظلُّ في العينين أبهى صورة ... في القلبِ تورقُ بالضياءِ وتزهرُ
ويظلُّ يُعْذرُ بعضُ من قد قصّروا ... ومتى يقصّرُ بعضُنا لا يُعْذَرُ

(*) شاعر من المملكة العربية السعودية.

أ.د. حسن الأمراني*

حول مفهوم الحضارة

إن كل خطاب لا يحدد مصطلحاته بدقة، رهين بأن يصاب بالتشويش وعدم الدقة في الإبلاغ. وما يقع أحيانًا من اضطراب في التواصل، مردّه في معظم الأحيان إلى عدم الرؤية الموحدة للدلالة المصطلحية. ومن هنا صار لزامًا على كل خطاب يهدف إلى الوضوح في الإبلاغ وتحقيق الغاية، أن تتسم مصطلحاته بتحديدات دقيقة مصونة عن المجاز كما يقول المناطقة.

وأول ما يواجهنا -في مقالنا هذا- من مصطلحات، مصطلح الحضارة. تجعل المعاجم العربية الحضارة مقابل البداوة. فجاء في لسان العرب: الحضر: خلاف البدو، والحاضر: خلاف البادي. وفي الحديث: لا يبيع حاضر لبادٍ، الحاضر: المقيم في المدن والقرى، والبادي المقيم بالبادية. والحِضارة بكسر الحاء: الإقامة في الحضر، عن "أبي زيد". وكان "الأصمعي" يقول: الحضارة بالفتح. قال "القطامي": فمن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا.

ولكن اللفظ لم يبق محصورًا في دلالته اللغوية الأولى، بل أصاب من التطور ما جعله ينتقل من الدلالة اللغوية إلى الدلالة الاصطلاحية الواسعة. وقد كان "ابن خلدون"، من الذين نقلوا الكلمة من مجال إلى مجال حين جعل الحضارة "غاية للبداوة". وعرف الحضارة في



"المقدمة" بأنها: "التفنن في الترف، واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه".

وفي خضم التطور الذي شهدته كلمة الحضارة، صارت من أشد المصطلحات تعقيدًا، نظرًا لتباين التعاريف التي قدمها العلماء لهذه الكلمة، سواء أعند العرب والمسلمين أم عند الغربيين. بل إننا نجد تداولاً في الغرب لكلمتين تتقاطع دلالاتهما أحيانًا، وهاتان الكلمتان هما "Civilisation" "Culture"، في حين تشيع عند العرب كلمات ثلاث هي "الحضارة" و"المدنية" و"الثقافة". وقد كان لعلماء الأنتروبولوجيا المعاصرين دور في تداول هذه الكلمة الأخيرة وإعطائها دلالة شمولية.

حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للإنسان ومن الكرامة لكل فرد في المجتمع، ولا حرية في الحقيقة ولا كرامة للإنسان -ممثلاً في كل فرد من أفراده- في مجتمع بعضه أرباب يشرعون، وبعضه عبيد يطيعون.

نظرة الغرب إلى الحضارة

وإذا كان مفهوم الحضارة مقياسًا لمستوى الإدراك وعنوانًا على معطيات الأمم والشعوب، فإننا نجد جملة من التعاريف منها:

١- أولى التعاريف تجعل الحضارة مرادفة لمصطلح المدنية؛ فالحضارة مدنية، والمدنية حضارة. ومن هنا، فإن أولئك المتخلفين عن أنماط الحياة المدنية من بدوٍ أو قبائل من الأدغال، غير متحضرين وإن يكن عندهم مستوى من فكر أو سلوك.

وأصحاب هذا الرأي ينظرون إلى الاشتقاق اللغوي لكلمة "Civilisation"؛ فهذه الكلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية "Civilis"، أي المدني أو المواطن في المدينة، ثم استعملت مجازًا لتدل على عملية اكتساب الصفات المحمودة، لتتطور بعد ذلك وتصبح معبرة عن حالة الرقي والتقدم لدى الأفراد والجماعات. والمدنية أو الحضارة بهذا المعنى، هي الخروج من الحالة البدائية إلى حالة التمدن.

٢- ويروي "ول ديورانت" صاحب "قصة الحضارة"، أن الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها.

من هنا يرفض "ديورانت" التفسير الذي يخرج البدو وقبائل الأدغال من دائرة الحضارة، ويرى أن "الهمجي" هو أيضًا متمدن بمعنى عام من معاني المدنية، لأنه يعني بنقل تراث القبيلة إلى أبنائه، وما تراث القبيلة إلا مجموعة الأنظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية التي هذبتها أثناء جهادها، في سبيل الاحتفاظ بحياتها على هذه الأرض.

٣- وذهب فريق من العقلانيين إلى أن الحضارة مرادفة للعقل نفسه، إذ هي في أحسن الأحوال ثمرات العقل، في حين قال آخرون: إن الحضارة هي الاقتصاد.

وتعريف الحضارة عند "وليم هاولز"، هي كل ما يساعد الإنسان على تحقيق إنسانيته.

٤- وربط "أرنولد توينبي" الحضارة بالكنيسة الكاثوليكية، مدعيًا أن الحضارة الغربية هي وحدها التي تحافظ على "الشرارة الإلهية الخلاقة"، وهي وحدها القادرة على أن تؤول إلى ما آلت إليه سابقاتها. وقد حدد معالم الحضارة بقوله: "إنها حصيلة عمل الإنسان في الحقل الاجتماعي والثقافي، وهي حركة صاعدة، وليست وقائع ثابتة وجامدة، إنها رحلة حياتية مستمرة لا تقف عند مينائها.

ويخالف "رجاء كارودي" ما ذهب إليه "توينبي" عن خلود الحضارة الغربية المسيحية في كتابه "حوار الحضارات"، ويؤكد أطروحته تلك ويزيدها بيانًا في كتابه "وعود الإسلام". فهو يبدأ بهذه المصادرة = الغرب عرض طارئ.

ويتحدث عن الحضارة الغربية قائلاً: "وأنا أطلق عبارة "الشر الأبيض" على هذا الجانب من الدور المشؤوم الذي نهض به الإنسان الأبيض في التاريخ.

وإذا تجردنا عن الحكم العرقي المسبق القائل بتميز الإنسان الأبيض، وجدنا أن منابع الغرب (الإغريقية والرومانية والمسيحية) إنما ولدت في آسيا وإفريقية. وأن عصر النهضة -وهو ليس حركة ثقافية وحسب، بل ولادة

مواكبة أنجبت الرأسمالية والاستعمار- قد هدم حضارات أسمى من حضارات الغرب، باعتبار علاقات الإنسان فيها بالطبيعة وبالمجتمع وبالإلهي، بدل أن يكون ذروة الإنسانية".

ولهذا يدعو "كارودي" إلى "حوار الحضارات"؛ إذ بهذا الحوار وحده، يمكن أن يولد مشروع كوني يتسق مع اختراع المستقبل، وذلك ابتغاء أن يخترع الجميع مستقبل الجميع.

وقبل "كارودي" قام الألماني "أوزوالد شبنكلز"، بالتبشير بانهيار الحضارة الغربية في كتابة "انهيار الغرب"، الذي أصدره عقب الحرب العالمية الأولى. وأما "ألكسيس كاريل"، فيتحدث عن الحضارة الغربية المعاصرة في كتابه "الإنسان ذلك المجهول" قائلاً: "إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب، لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أي معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ إنها تولدت في خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا".

نظرة المسلمين المعاصرين إلى الحضارة

وقد اجتهد المسلمون المعاصرون في الاهتمام بالحضارة وتقديم تعريف لها ومعالجة قضاياها. ومن هؤلاء "مالك بن نبي" الذي عني بالقضايا الحضارية ومشكلاتها، وأصدر في هذا المجال سلسلة "مشكلات الحضارة". والحضارة عند "مالك بن نبي" تظل مرتبطة بالوحي، يقول في "شروط النهضة: "فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة الوحي يهبط من السماء، ويكون للناس شرعة ومنهاجًا... فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة، إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية".

وقد سلك "سيد قطب" هذا المنحى، منتهيًا إلى أن الإسلام هو الحضارة. إذ مفهوم الحضارة عنده مرتبط بالتحرر الكامل لقوى الإنسان وطاقته، وذلك أمر لا يتحقق إلا بالإسلام. يقول "سيد قطب": "حين تكون الحاكمية العليا في مجتمع لله وحده، متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية، تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحررًا كاملاً وحقيقيًّا من العبودية للبشر، وتكون هذه هي "الحضارة الإنسانية". لأن حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للإنسان ومن الكرامة لكل فرد في المجتمع، ولا حرية في الحقيقة ولا كرامة للإنسان -ممثلاً في كل فرد من أفراده- في مجتمع بعضه أرباب يشرعون، وبعضه عبيد يطيعون". ثم يقول: "حين تكون إنسانية الإنسان هي القيمة العليا في مجتمع، وتكون الخصائص الإنسانية فيه هي موضع التكريم والاعتبار، يكون هذا المجتمع متحضرًا".

ومن خلال هذه المفاهيم والتصورات عن الحضارة، تتضح المعطيات الأساسية الكامنة وراء هذه التعاريف. فكل يسعى لإيجاد الرابط الوثيق بين تصوره عن الكون والحياة والإنسان، وبين ما يسمى "الحقيقة الحضارية"، ليصل إلى نتيجة مؤداها تأكيد حضارية، فكره وممارسته مغلبًا عليهما الطابع الذي يريد.

غير أن الحضارة اصطلاحًا، ينبغي كما يقول "محمد علي ضناوي": "إن تحدد بمعزل عن الأطر الفكرية طالما ارتضينا أن تكون الحضارة مصطلحًا، ومن هنا ينبغي التفرقة بين الحضارة والمبادئ. إن الحضارة ليست المبادئ والمفاهيم، ولكنها حصيلة تطبيق تلك المبادئ والمفاهيم. إن المبادئ والمفاهيم إذا لم تمارس تغدو تراثًا وكلامًا مسطورًا، ولا يصح تسميتها "حضارة" حتى تترجم إلى أي واقع يحياه الناس ويسود المجتمع".

ومن هنا في كتابه "مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية" قدم "محمد علي ضناوي" للحضارة التعريف التالي: "الحضارة هي تفاعل الأنشطة الإنسانية لجماعة ما، في مكان معين، وفي زمن معين أيضًا، ضمن مفاهيم خاصة عن الكون والحياة والإنسان".

الإنسان والزمان والمكان، والعلاقات الموحدة بين هذه العناصر الثلاثة هي إذن مكونات الحضارة. وقد كان هذا هو المنهج الذي اتبعه "أبو الأعلى المودودي" حين عرّف الحضارة مطلقًا بأنها: "إنما هي نظام متكامل يشمل كل ما للإنسان من أعمال وآراء وأعمال وأخلاق في حياته الفردية أو العائلية أو الاجتماعية أو الاقتصادرية الساسية".

وعرّف الحضارة الإسلامية تحديدًا بأنه: "مجموعة المناهج والقوانين التي قررها الله ﷻ لكل هذه الشؤون والشعَب المختلفة لحياة الإنسان"، وهي المعبر عنها بكلمة "دين الإسلام أو الحضارة الإسلامية"". ■

(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.

صابر عبد الفتاح المشرفي*



مؤتمر
السراج النبوي ينير درب البشرية الحائرة

الزمان: ٥-٦ مايو ٢٠١٢.

المكان: في أقصى الجنوب التركي، وتحديدًا في مدينة "غازي عينتاب"؛ مسقط رأس العلامة المحدث "بدر الدين العيني" صاحب كتاب "عمدة القاري في شرح صحيح البخاري"، ومنشأ كثير من علماء الدين المشاهير.

المضيف: الشقيقتان "حراء" الغراء، و"يني أوميد" (الأمل الجديد)، في ثاني لقاء يجمع بينهما في هدي النبي ﷺ، والرابع على مستوى المؤتمرات بشكل عام.

الضيوف: من ربوع الأرض جاؤوا، من كل حدب وصوب، ومن كل فج قريب أو عميق، من أكثر من ستين دولة توافدوا كما يتوافد الحجيج لأداء الشعائر المقدسة، هذا عن ضيوف الخارج التركي، وقد بلغ عددهم أكثر من ثلاثمائة شخصية رسمية ودينية وشعبية معتبرة. أما عن ضيوف الداخل التركي، فقد تجاوزوا الألف، ما بين رؤساء الهيئات الدينية الكبرى، وأساتذة وعمداء لكليات الإلهيات والعلوم الشرعية، وأئمة ووعاظ وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، وثلة مباركة من جهابذة وشيوخ المدارس الشرقية الدينية، إلى جانب شخصيات سياسية متنوعة، وطلبة وطالبات جامعيين، وشعب محب عاشق متيم بالحبيب المصطفى ﷺ، فضلاً عن طواقم إعلامية محلية ودولية عديدة. ومضيف هؤلاء وضيفهم الأكبر الحاضر بروحه الغائب بشخصه فضيلة الأستاذ العلامة محمد فتح الله كولن حفظه الله ورعاه.

الحدث: مؤتمر دولي عالمي، وسط حضور حاشد ومعنويات محلقة بعنوان: "السراج النبوي ينير درب البشرية الحائرة"، استنفر فيه العلماء الأجلاء المدعوون طاقتهم،

ليناقشوا أهم المشكلات الاجتماعية التي تتعرض لها الإنسانية، وأبرز المحاور الحياتية التي تمس حياة المسلم في ضوء الهدي النبوي الشريف.

الفعاليات:

مقتطفات من اليوم الأول

لاقت كلمة الأستاذ "وحيد الدين خان" العلامة الهندي والصوفي الداعية الشهير في الجلسة الافتتاحية، صدى مؤثرًا في قلوب السامعين والحاضرين، لا سيما وأنه في السابعة والتسعين من عمره... حيث صعد المنصة متوكئًا على بعض تلامذته، وبلغ الناس كلمته مشفوعة بدموعه ونبرات صوته التي تخنقها العبرات. وقد أعرب في كلمته عن ضرورة استكشاف الاتجاهات الحديثة في السنة النبوية، ووجوب الارتكاز على الأسس القرآنية والنبوية عند التصدي لحل مشكلاتنا الاجتماعية. ثم أشاد بدور تركيا ومكانتها الفريدة بين الشرق والغرب، باعتبارها نقطة ارتكاز لتنوع الحضارات والثقافات، مما يجعلها الأقدر من أي دولة أخرى على نقل الرسالة الإسلامية بصورتها الحضارية. وبين سنن الزوائد وسنن الهدى أشار الأستاذ الدكتور "محمد كورمز" رئيس الشؤون الدينية التركية، أنه في الوقت الذي نجح فيه المسلمون في كثير من سنن الزوائد، فشلوا في سنن الهدى، ومن ثم دعا إلى وجوب مراجعة المناهج الدراسية في الجامعات والمدارس. وأكد على أن الهدي النبوي لم يفتأ يواجه العلل والأمراض الاجتماعية، وذلك بمعالجة أسبابها من جذورها، والتصدي لآثارها ونتائجها، ومن أهم تلك المشكلات التي جاء الإسلام لحلها مشكلة العنصرية. ثم نحى باللائمة على من يريدون فهم الإسلام بغير القرآن، أو بغير الرسول ﷺ، متمثلاً في سنته السنية وهديه المبارك. وبيّن أن مثل هذا الصنيع، من شأنه أن ينشئ جدارًا فاصلاً بين القرآن والرسول ﷺ.

كما أعرب فضيلة الشيخ الشريف "إبراهيم صالح الحسيني" رئيس هيئة الإفتاء ورئيس المجلس الإسلامي بنيجيريا، عن شكره وتقديره لانعقاد هذا المؤتمر فهو "مؤتمر قد جاء في وقته، وعليه تعلق الأمة آمالاً كثيرة، فليس لها من منقذ سوى ورثة الأنبياء، الذين يتمثلون رسول الله سلوكًا ومظهرًا، لأنه السراج المنير، وهو قدوة بذاته وأفعاله. وكُمّل الرجال هم من يصطحبون حاله معهم في الليل والنهار"، ثم عبر عن تقديره للمربي الفاضل الأستاذ محمد فتح الله كولن، لتربيته جيلاً من الشباب تربية نموذجية، لكل من أراد أن يعمل بقلب خالص... وأشاد سماحة الأستاذ الدكتور "عبد الكريم الحصاونة" مفتي المملكة الأردنية الهاشمية، بتركيز المؤتمر على الجانب الاجتماعي في الهدي النبوي، لأنه الجانب الأساس الذي ركز عليه الإسلام في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة.

وبهذا المقطع المترجم من قصيدة بعنوان: "وردة المدينة"، والتي نظمها فضيلة العلامة الأستاذ محمد فتح الله كولن ختم كلمته، حيث يقول فيها: يا



نوزاد صواش، المشرف العام على مجلة حراء/تركيا.
د. أرجون جابان، رئيس تحرير مجلة يني أوميد/تركيا.
وحيد الدين خان، رئيس المركز الإسلامي بـ"نيو دليهي/الهند.
أ.د. محمد كورمز، رئيس الشؤون الدينية/تركيا.
إبراهيم صالح الحسيني، رئيس المجلس الإسلامي/نيجيريا.

وردة أحالت الصحراء القاحلة إلى جنان، أشرقي على قلبي بألوانك الساحرة...

آن الأوان، لتكَفكفي عيوني الدامعة، يا وردة أحالت الصحراء القاحلة إلى جنان... والوردة الحمراء في الأدبيات الصوفية التركية ترمز إلى الحبيب محمد ﷺ. وقد رحب في مطلع كلمته بالسادة الحضور، وأعرب عن أسفه لعدم قدرته على المشاركة، كما هنأ كلاًّ من المجلتين العزيزتين على تنظيم هذه المؤتمرات العالمية، وتمنى لهما دوام التوفيق والنجاح. وفي ثنايا الكلمة بين أن مفخرة الإنسانية عليه أفضل الصلاة والتسليم: "هو باني الإنسانية من جديد، ولا يزال، وسيبقى بانيًا لها في كل آن؛ في أمسِها ويومِها وغدها. وكما بدَّل في عصره بحملة واحدة، وبنفخة واحدة، مفاهيمَ ضالةً، وسلوكياتٍ غير إنسانية، وانحرافاتِ سوءِ الأخلاق والأمزجة المغروسة في الطبائع من آلاف السنين، فسيُسمِع صوتَه -يقينًا وحقًّا- للجموع المنفلتة المنفرِط عِقدُها اليوم، وسيضبطهم بضوابطه إن عاجلاً أو آجلاً، وسيُظهر قوة رسالته".

وفي المحاضرة الافتتاحية لفضيلة الأستاذ الدكتور "علي جمعة" مفتي الديار المصرية، أوضح أن آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية المطهرة، قد اشتملا على أكثر من ٩٥٪ في الأخلاق والعقيدة، وأن النسبة الضئيلة الباقية اشتملت على الأحكام الشرعية والفقه مع أهمية الشريعة، وأنه لاحياة بدونها، مما يبين لنا المنهج الذي ينبغي أن نسير عليه، والمتمثل في قوله ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". وأشار فضيلته إلى أن تلمس المنهج النبوي واستنباط الحلول التي يسميها العلماء "أمهات الأبواب"، هو السبيل القويم في حل المشكلات الاجتماعية... ومن ثم فعلينا التوجه إلى هذا المنهج النبوي والبحث عن حلول لمشكلاتنا فيه... ثم أخذ يتناول بعض هذه المشكلات وسبل حلولها وفق الهدي النبوي. كما أوضح أن كل المؤتمرات التي عقدت من أجل البحث عن المشكلات وحلولها، آلت إلى أن المشكلة الكبرى تكمن في التربية والخلل فيها. وختم كلمته بالدعوة إلى العمل الصحيح والأمل الفسيح، لأنه بالأمل وحده فسوف نتحول إلى ظاهرة صوتية، وسوف نخسر كثيرًا من أرضنا الفكرية كل عام.

"في مدينة الثقافة والحضارة والعلم والعرفان، أرحب بكم أعزائي عشاق الحبيب المصطفى ﷺ"... بهذا الوصف الحبيب إلى نفوس الأتراك، وبهذا الاعتزاز العلمي والعرفاني بمدينة "غازي عينتاب"، رحب الأستاذ الدكتور "علي بارداك أوغلو" رئيس هيئة الشؤون الدينية السابق، بضيوفه من كل ربوع الأرض، ثم ذكر في تقدمته للجلسة الأولى التي عنونت بـ"عالمية المنهج النبوي وربانيته"، أن المؤمن في حاجة ماسة إلى تنزيل القرآن الكريم وهدي النبي ﷺ في قلبه، ومن ثم تمثله في حياته وواقعه ومستقبله... وأنه لا حل لمشكلاتنا الحياتية والاجتماعية بدون هذا التنزل والتمثيل. وببلاغته المعهودة وبيانه المؤثر، عبر فضيلة الأستاذ الدكتور "فتحي حجازي" عن الأجواء النورانية التي تحف المؤتمر، ثم بين في كلمته التي عنوانها: "مكانة



أ.د. علي جمعة، مفتي الديار المصرية.

أ.د. عبد الكريم الحصاونة، مفتي المملكة الأردنية الهاشمية.

أ.د. فتحي حجازي/مصر.

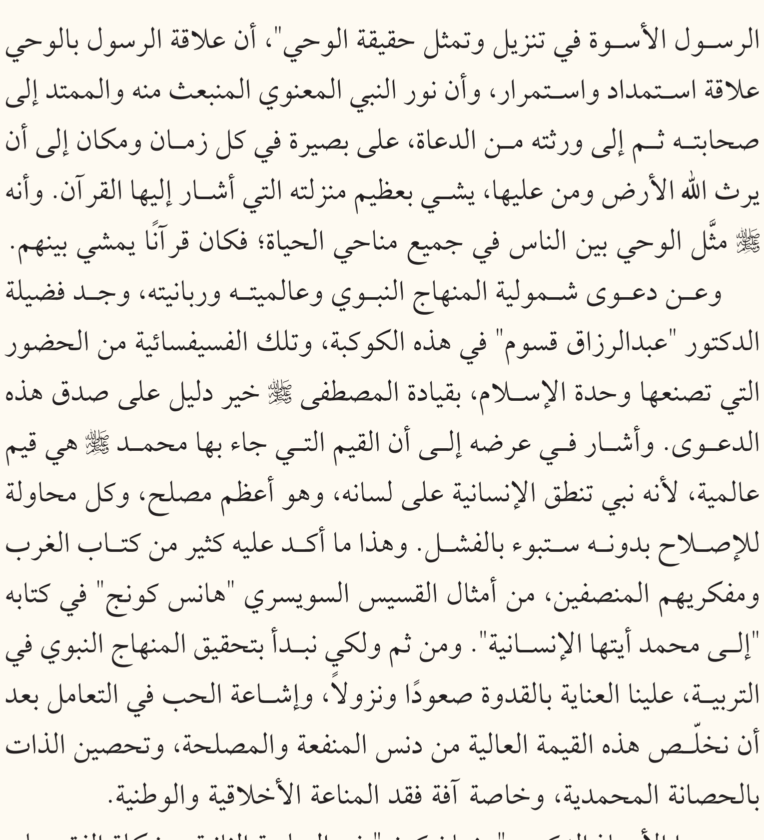
د. أحمد البوكيلي/المغرب.

أ.د. عبد الرزاق قسوم/الجزائر.

الرسـول الأسـوة في تنزيل وتمثل حقيقة الوحي"، أن علاقة الرسول بالوحي علاقة اسـتمداد واسـتمرار، وأن نور النبي المعنوي المنبعث منه والممتد إلى صحابتـه ثـم إلى ورثته مـن الدعاة، على بصيرة في كل زمـان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يشـي بعظيم منزلته التي أشـار إليها القرآن. وأنه ﷺ مثَّل الوحي بين الناس في جميع مناحي الحياة؛ فكان قرآنًا يمشي بينهم.

وعـن دعـوى شـمولية المنهاج النبـوي وعالميتـه وربانيته، وجـد فضيلة الدكتور "عبدالرزاق قسوم" في هذه الكوكبة، وتلك الفسيفسائية من الحضور التي تصنعها وحدة الإسـلام، بقيادة المصطفى ﷺ خير دليل على صدق هذه الدعـوى. وأشـار فـي عرضه إلـى أن القيم التـي جاء بها محمـد ﷺ هي قيم عالمية، لأنه نبي تنطق الإنسانية على لسانه، وهو أعظم مصلح، وكل محاولة للإصـلاح بدونـه سـتبوء بالفشـل. وهذا ما أكـد عليه كثير من كتـاب الغرب ومفكريهم المنصفين، من أمثال القسيس السويسري "هانس كونج" في كتابه "إلـى محمد أيتها الإنسـانية". ومن ثم ولكي نبـدأ بتحقيق المنهاج النبوي في التربيـة، علينا العناية بالقدوة صعودًا ونزولاً، وإشـاعة الحب في التعامل بعد أن نخلّـص هذه القيمة العالية من دنس المنفعة والمصلحة، وتحصين الذات بالحصانة المحمدية، وخاصة آفة فقد المناعة الأخلاقية والوطنية.

وعزا الأستاذ الدكتور "عثمان كونر" في الجلسة الثانية، مشكلة الفقر على المسـتوى الفردي في زماننا إلى أسـباب عديدة من أهمها: الكسـل والتبذير والبخل. ونفى أن تكون قلة الموارد، أو النقص في بعض النعم التي أنعم الله بها على الإنسـان، عاملاً من عوامل الفقر على المسـتوى الاجتماعي، وإنما سـوء توزيع هـذه الموارد، والظلم والجـور في اسـتخدامها، وغياب العدالة الاجتماعية، هو السـبب الرئيسـي في هذا... واستشـهد على ذلك بقوله: "إن مـا تنفقه بعض الدول على إطعام الحيوانـات وفي التجميل، يمكن أن يطعم أفريقيـا كلهـا". ثم بين أن العدالة الاجتماعية كانت أساسًـا من أسـس الهدي النبـوي، كما أن الإسـلام قـد صاغ مجموعة من الأوامـر والنواهي تؤدي في مجملهـا إلى نظام اقتصادي عادل، كتحريم الربـا وفرض الزكاة والكفارات، والنهـي عـن الإسـراف والتبذيـر والكسـل، والحض علـى العمـل والإنتاج والتدبير، والصدقات والتبرعات. وحول مشـكلة الجهل أشـار الدكتور "عبد الحميـد أبـو سـليمان" الأمين العام لمعهد الفكر الإسـلامي، إلـى أن الجهل إذا حلت مشـكلته حلت كل المشـاكل، والجهل يقابله العلم الذي يؤدي إلى العمـل، وأي جهـل لا يقابله علم يؤدي إلى عمل فهـو جهل أيضًا. كما رأى أن أي تغيـر لا يسـتند إلى عقيـدة صلبة فهو فقاعة، وأن أهـم أنواع الاقتصاد فـي عصرنـا هو اقتصاد المعرفة، وذكر بعض تجارب معهد الفكر الإسـلامي فـي هـذا الصدد. كما دعا إلـى وجوب تغيير الخطاب من الشـدة والقهر إلى اللين والرحمة عملاً بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾(البقرة:١٦٥)، ثم ختـم حديثـه بقوله: "العلم للأخلاق والجهل لقلة الأخلاق". وختم الأسـتاذ



أ.د. علي بارداك أوغلو، رئيس الشؤون الدينية التركية السابق.

أ.د. محمود السرطاوي/الأردن.

الشيخ خليل النحوي/موريتانيا.

"جنيد كوكجة" الجلسة واليوم الأول كله بحديثه عن مشكلة العنصرية والتفرق. وأشار في حديثه عن هذه المشكلة إلى أن الفرقة حس شيطاني واضح، قال تعالى على لسان إبليس: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾(الأعراف:١٢)، وأوضح أن الوحدة والتوحد تحوّل أي مجتمع إلى جنة، وأن الفرقة والاختلاف تحوّل أي مجتمع إلى جهنم، ومن ثم كان الإسلام من خلال القرآن الكريم وهدي النبي ﷺ يلح على قضية الوحدة والتوحد ونبذ الفرقة والتعصب والعنصرية، حفاظًا على سلامة المجتمع وتماسكه، وسعادة أفراده وهناءتهم.

مقتطفات من اليوم الثاني

أكد الأستاذ الدكتور "عبد الناصر أبو البصل" في عرضه الشائق المشفوع بالوسائل التكنولوجية الحديثة، أن الأخوة الدينية والإيمانية رابطة وثيقة بين المسلمين أينما كانوا، وبها بطلت ثلاث عصبيات: النسب، والحلف، والوطن. وأن نموذج المؤاخاة في العصر النبوي قد انبنى على الإيمان، وتآلف القلوب، والعمل الصالح، والتربية النبوية. كما بيّن أننا في حاجة ماسة إلى المؤاخاة في هذا العصر، وأننا نستطيع أن نستنبط من النموذج النبوي، بما يتواكب مع روح العصر ووفق وسائله الحديثة، وضرب أمثلة متعددة لذلك.

وحول خلق الإيثار في المنهاج النبوي ذكر الشيخ "خليل النحوي"، أن الآية المدخل في هذا الموضوع قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(الحشر:٩).

فالآية لم تحدد بم نؤثر ومن نؤثر، وتركت الباب مفتوحًا، وهذه إشارة عظيمة من إشارات القرآن. كما أشار إلى أن الإيثار قيمة مركبة، وهو أعلى مراتب الإيمان. ثم عدد صورًا من خلق الإيثار في حياة النبي ﷺ الذي كانت حياته كلها إعلاء لهذه القيمة.

وفي عرض متميز أثرى به الجلسة الرابعة بعنوان: "البشرية الحائرة ودور العالم على ضوء السراج النبوي"، تساءل الدكتور "محمد باباعمي": "هل لدينا الجرأة أن نتبع العالم المرشد المربي؟" وبعد أن استعرض مظاهر حيرة البشرية، وتساءل عن المخرج لها من تلك الحيرة، أبان في ختام عرضه عن الدور المنوط بالعالِم بقوله: "وليس المطلوب من العالِم أن يصف الدواء، ويكتب عنه، ولا أن يتحدّث عن السراج ويفتخر به، وإنما عليه واجب آخرُ هو النزولُ إلى الأرض، وحقنُ المريض بالجرعات اللازمة من الدواء، وحملُ السراج إلى المناطق المظلمة؛ من مدرسةٍ، وجامعةٍ، وبرلمانٍ، ومخبرٍ، وقناةٍ، وسوقٍ... وغيرها. وهذا ما يمكن





أن نسميه "تحويل الفكر إلى فعل"، و"تجسيد العلم بالعمل".

كما شاركه التميز كل من الأستاذ الدكتور "محيط مرت" والدكتور "رشيد هايلاماز" في عرضيهما المعنونين بـ"مدرسة أصحاب الصفة ودورها في البناء الحضاري"، و"مكانة الصدّيقة عائشة في فهم الهدي النبوي"، وأبدى الدكتور "رشيد" تأثرًا بالغًا في ختام عرضه الموضوعي عن الصدّيقة بنت الصدّيق، ترقرقت معه دموعه بسبب المحاولات البغيضة للتقليل من مكانة أم المؤمنين والغض من شأنها.

ثم توالت الجلستان الخامسة والسادسة، طرحت فيهما عديد من الموضوعات الهامة أبرزها "سعادة الإنسان وأمنه وكرامته في الهدي النبوي، وملامح المجتمع المثالي في المنهاج النبوي" الذي عرضه الأستاذ الدكتور "أحمد البوكيلي" من خلال نموذج خطبة الوداع. بالإضافة إلى توقير السلف الصالح وعلماء الأمة وأئمة المذاهب وتعظيم الشعائر الإسلامية. ثم جاءت الجلسة الختامية التي عرضت عرضًا سريعًا موجزًا لأهم ما ورد في المؤتمر بشكل عام.

بعض الانطباعات

وحيد الدين خان: لدي إيمان عميق وقناعة راسخة وشعور بالتفاؤل بقدرة الحاضرين والمشاركين ومن بينهم تلامذة الأستاذ محمد فتح الله كولن، على أن يفعلوا شيئًا ما في تبليغ رسالة الإسلام بصورته الحضارية.

أ.د. محمد كورمز: يتداعى إلى ذهني عند رؤية هذه الكوكبة المباركة من العلماء الأجلاء، اللقب الذي أطلقه الرحالة التركي الشهير "أوليا شلبي" على مدينة "غازي عينتاب"؛ "بخارى الصغرى"، لكثرة ما كان بها من علماء في عصره.

أ.د. علي جمعة: مجلس علم تحفه الملائكة.

أ.د. فتحي حجازي: إن سيدنا أبا أيوب الأنصاري قد استقبل النور الخالد مفخرة الإنسانية الحبيب محمد ﷺ في بيته في المدينة المنورة، وهو اليوم يستقبل أحباب الحبيب المصطفى علماء الأمة وورثة الأنبياء في تركيا، وذلك فضل الله على عباده.

أ.د. علي كوسة: هذا الحشد ذكرني برحلة "مالكوم إكس" إلى الحج، وكيف غيرت تلك الرحلة قناعاته الخاطئة عن الدين الإسلامي عندما رأى الألوان والأجناس المختلفة جنبًا إلى جنب في هذه الرحلة المباركة دون تمييز أو تفرقة.

الشيخ خليل النحوي: هذه الوجوه القادمة من أكثر من ستين دولة، تقدم تعريفًا آخر لغار حراء. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

نور الدين صواش*



السلطان سليم
الخادم الأمين

قبل سفره إلى الشرق زار السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) مسجد الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري في إسطنبول... صلى ركعتين ثم دعا ربه راجيًا النصر وجمعَ شمل الأمة... وبعد ذلك ولّى وجهه نحو منطقة أسكدار لقيادة الجيش... تحرك الجيش العثماني في ٥ يونيو/حزيران ١٥١٦ من أسكدار... كان يمر من الأراضي الغنية بالحدائق والبساتين، والزاخرة بشتى أنواع الفواكه والثمرات... ولما وصل الجيش إلى منطقة "كَبْزة" -التي تبعد عن إسطنبول بستين (٦٠) كيلومتر تقريبًا- وحط رحاله واستقر، هجس في قلب السلطان سليم هَمٌّ ووقع في خلده أمرٌ... فدعا آغا الإنكشاريين على الفور وأمره بأن يفتش خروجَ وأكياسَ الجنود كافة ليتحقق من أمرٍ هو: هل جنى الجنود فاكهة من هذه البساتين دون إذن أصحابها أم لا!؟ فذهب الآغا على الفور وشرع مع أعوانه بتفتيش الجنود واحدًا واحدًا، ثم بتفتيش الأشجار كذلك واحدة واحدة... ولكنه لم يعثر على شيء قط. وعندما أخبر السلطان بالأمر، افترّ ثغره عن ابتسامة، رفع يديه إلى السماء وراح يدعو قائلاً: "أحمدك اللهم أنْ وهبتني جيشًا يبتغي مرضاتك، لا يأكل الحرام ولا يغتصب الأموال".

ثم التفت إلى آغا الإنكشاريين وقال: "يا آغا! لو أني وجدتُ جنديًّا واحدًا قام بقطف ثمرة دون رضى صاحبها، لما ترددتُ في العدول عن سفري هذا، ولما تأخَّرتُ لحظة واحدة بالعودة إلى حيث أتيتُ".

ثم أردف قائلاً: "يا آغا! إنه من المستحيل أن تُفتح البلاد بجيش يأكل الحرام ويغتصب أموال الناس". ■



فنانة الألوان
الحرباء

ك
كائن يملـك موهبة يحاكي بها جميع ألوان الطبيعـة. إنها الحِرباء التـي تُغير لونها وفقًا للّون الذي تطأه ببضع دقائق! تكتسي اللون الأخضـر إذا كانت بيـن الأوراق الخضراء، وتكتسـي اللون الرمـادي إذا كانـت بين الأحجار الرماديـة... ولكن من أين لهذه الحرباء بهذه الألوان؟ وأين تختزن الأصباغ يا ترى؟

تتمتع الحرباء بجلد شفاف ذات طبقات من الخلايا التي تحتـوي علـى مـادة للتلويـن، وإذا تقلصت هـذه الخلايا أو تمـددت تَغير لـون جلدها... وكذلك يتغير لون الحرباء عند انفعالهـا؛ حيث يؤدي خوفها أو غضبها إلى تخفيف الخلايا مـن الأصبـاغ الكائنة في جلدها الذي يحتـوي على الألوان الكاشـفة بالقـرب مـن سـطحه، وعلـى الألـوان الداكنة في طبقاته السـفلى، وهذا الترتيب في الخلايا هو الذي يسـبب تعدد الألوان عند الحرباء.

وعـن طريق هذه الألـوان تمكّنت الحرباء من التمويه أو التخفـي على أحسـن وجـه، كونها بطيئـة الحركـة ولا تسـتطيع التحرك بسرعة. وبالتمويه هذا، استطاعت الحرباء حماية نفسها من الأخطار، والتقاطَ فرائسـها من الحشـرات والهوام بلسـانها اللزج الذي يبلغ طول جسمها.

أمر آخر يثير العجب في هذا المخلوق، وهو اسـتقلالية عيونهـا عن بعضهـا البعض، حيـث تمتعت الحربـاء بمدى رؤية ١٨٠ درجة أفقية، و٩٠ درجة عمودية، الأمر الذي وفر لها رؤية أمامها وخلفها وفوقها وتحتها في آن واحد!

إنـه عالم الحيـوان، العالم المعجز الذي يسـتحق التأمل والتدبر في كل حين، أليس كذلك؟. ■

(*) كاتب وباحث تركي.





مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أجير إشيوك
eisiyok@hiramagazine.com

المخرج الفني
أنكين جفتجي

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال : +20100780831
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com



التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN
مركز دار النيل. مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 - الخرطوم - السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution, d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

• المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٥٠ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار


حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com
تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار
الألوان ووجه الطفل
هكذا كانت أحلام طفولتي،
بالألوان زاهية..
المستحيلاتُ فيها ممكنة..
ورياض الورد في نسيج خيالي،
تحاكي عهد الورد يا سالي(*)
ويهبّ نسيمي بريئًا مثل براءتي..
* * *
(*) عهد الورد هو عصر النبي ﷺ.
ISSN 1306-1879
9 771306 187009 31
www.hiramagazine.com